دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	العمارة والعمران في الرحلة المغربية: رحلة الرافعي التطواني نموذجاً
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة عبد الملك السعدي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان
المؤلف الرئيسي:	الغاشي، مصطفى عبدالله
مؤلفين آخرين:	البغيال، محمد(م. مشارك)
المجلد/العدد:	ع18
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
الصفحات:	275 - 320
رقم MD:	876604
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase, HumanIndex
مواضيع:	التنمية العمرانية، التخطيط العمراني، فن العمارة، الفنون المعمارية، الرحلة المغربية، رحلة الرافعي التطواني، الكشوفات الجغرافية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/876604

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

العمارة و العمران في الرحلة المغربية

رحلة الرافعي التطواني نموذجا

د . مصطفى الغاشي ذ . محمد البغيال
مختبر حوار الثقافات والأبحاث المتوسطية كلية الاداب تطوان

تعتبر العمارة و فن العمران من أقدم إنجازات الإنسان ، بل أقدمها على الإطلاق ، و أحد الروافد الأساسية التي يمكن أن نتتبع عبر حمولتها تاريخ البشرية ، و تطور ثقافاتها ، و تلاقح تأثيراتها مدا و جزرا [1] . و يحتل فن العمارة مكانة متميزة في ملاحظات الرحالين و مشاهداتهم في المناطق التي شملتها رحلاتهم و جولاتهم ، فالرحلات أولت فن العمارة اهتماما خاصا من حيث أشكاله و وظائفه الدينية و الاجتماعية و الدفاعية ، مبرزة عناصر الإبداع الهندسي و الجمالي و الزخرفي التي انصرف إلى تجسيدها المعمار الفنان [2] . و من هذا المنطلق تأتي أهمية الرحلات في كونها مصدرا لما اندثر من فنون العمارة ، و رصدا لما خضعت له العمارة القديمة من تطور عبر الحقب و العصور .

و لا نبالغ إذا قلنا أن موضوع وصف العمارة و العمران شكل الموضوع الرئيس في رحلة الرافعي التطواني بالنظر إلى الحيز الكبير الذي خصصه الرحالة لوصف العمارة في جميع المناطق و البلدان التي شكلت مسار رحلته إلى الحجاز ، و بالنظر أيضا إلى الاهتمام الفائق الذي أولاه الرحالة في تقديم معطيات دقيقة و مفصلة عن المعالم و المآثر العمرانية التي شاهدها و باشر معاينتها بنفسه ،

[1] - توري عبد العزيز : العمارة المغربية : مادة البناء في بعض استعمالاتها عبر العصور ، مجلة المناهل ، عدد مزدوج 73 – 74 ، فبراير 2005 ، ص 11 .

[2] - الحسن شاهدي : عمارة المسجد الحرام بمكة المكرمة من خلال الرحلة الكبرى لابن عبد السلام الناصري ، مجلة المناهل ، عدد مزدوج 73 – 74 ، فبراير 2005 ، ص 339 .

فرفع قياساتها و حدد أشكالها الهندسية بدقة متناهية ، و أبرز خصائصها المعمارية و الزخرفية بأسلوب سجعي جميل ينم عن ذوق فني رفيع و تقدير لقيم الجمال و تثمينها . فكل الأوصاف التي ضمنها الرافعي في رحلته ، اعتمد فيها على المشاهدة و المعاينة الميدانية المباشرة ، فلم يستند في رحلته -كما فعل كثير من الرحالة المغاربة [3] - على نقل أوصاف المعالم و المآثر التي شاهدها من رحلات أو مؤلفات سابقيه ، الشيء الذي يكسب وصفه راهنية الفترة التي زار فيها تلك المعالم المعمارية .

و لعل أهم ما يميز رحلة الرافعي التطواني في هذا الجانب هو تعدد و اختلاف أنواع العمارة التي حظيت بوصف الرحالة ، فإلى جانب العمارة الدينية التي تشمل وصف الجوامع و المساجد و الأضرحة و المشاهد المباركة في مكة و المدينة ، انصرف الرحالة إلى الاهتمام بوصف العمارة المدنية ، فكانت له وقفات متأنية في عدد من المدن كمدينة الجزائر و مدينة رشيد و مدينة الإسكندرية و مدينة رودس ... فقدم لنا معطيات دقيقة و مفصلة عن عناصرها المعمارية و مآثرها العمرانية و مرافقها الاجتماعية كالحمامات و المقاهي و شبكات توزيع الماء و صرفه و غيرها . و في مقام ثالث اهتم الرافعي كثيرا بوصف العمارة الدفاعية و عناصرها كالأسوار و الأبراج و تحصينات المراسي و الرباطات و الخنادق ، بل أكثر من ذلك ذهب به فضوله و اهتمامه بالمجال الدفاعي إلى وصف السفن الحربية الراسية في المراسي و وصف ما اشتملت عليه من مدافع ، فقدم لنا معلومات " لوجستيكية " بالغة الأهمية في هذا الباب ، و لعل اهتمام الرافعي هذا يجد تفسيره في خصائص المرحلة التاريخية التي عايشها الرجل و هي فترة السلطان مولاي إسماعيل التي تميزت بالتعبئة " للجهاد " من أجل تحرير الثغور المحتلة من أيدي الأوروبيين البرتغاليين و الإنجليز و الإسبانيين ، فكان الرافعي من أشد

[3] - راجع على سبيل المثال وصف الرحالة أبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي للمسجد الحرام و البيت العتيق ، و الذي نقله عن الرحالة ابن جبير الأندلسي . أنظر : رحلة الوزير الإسحاقي (ت . بعد 1150 هـ) دراسة و تحقيق محمد البغيال ، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه ، نوقشت بكلية الآداب بتطوان سنة 2013 ، غير منشورة ، ص 419 و ما بعدها .

المناصرين و المتحمسين لهذه " السياسة الجهادية " التي استهدفت تطهير البلاد من المحتلين الأوربيين كما يستشف ذلك من قصائده التي نظمها بمناسبة فتح ثغري المعمورة و طنجة [4] ، و أيضا من خلال رسائله في موضوع الجهاد و المجاهدين بالشواطئ المغربية ، و التي ضمنها كتابه " غرر المقاصد و المطالب و درر الرسائل لكل طالب " [5] .

إن الواقف على حديث الرافعي عن العمارة ، يلاحظ بالإضافة إلى شخصية الملاحظ الدقيق ، أنموذج لمثقف عصر المولى إسماعيل المغرقة في الثقافة الدينية و الصوفية بالخصوص المرتبطة بالأضرحة و السادات و الكرامات ... و هذه العقلية كانت عاجزة عن مواجهة الضغوط الأوربية المدعومة بفكر جديد و ثقافة جديدة .

و لكن قبل الدخول في الموضوع و الشروع في تحليل عناصره و تفكيكها ، يجدر بنا الوقوف عند ترجمة مؤلف الرحلة " المعارج المرقية في الرحلة المشرقية " و تسليط الضوء على مختلف المؤثرات السوسيو- ثقافية التي أسهمت في تكوين شخصيته و بلورة مواقفه من القضايا الفكرية و السياسية التي ميزت عصره و خاصة القضية الوطنية الكبرى المتمثلة في الجهاد من أجل تحرير الثغور المحتلة .

يجمع المؤرخون و الباحثون الذين حاولوا الترجمة للفقيه الرافعي التطواني على ندرة و شح المعلومات حول هذا الرجل ، فالمؤرخ التطواني محمد داود يقر بأنه " لم نكن نعرف عنه شيئا قبل بضع سنوات ، فلم نقرأ اسمه في كتاب ، و لم نسمع به أو بأي شيء عنه من أفواه الشيوخ ، إلى أن وقع

---

[4] - محمد الرافعي التطواني : المعارج المرقية في الرحلة المشرقية ، مخطوط الخزانة الداودية بتطوان ، ضمن مجموع رقم 134 ، صص 63 – 64 .
- يبدأ ترقيم صفحات الرحلة من الرقم : 12 و ينتهي عند الرقم 203 ، إلا أننا فضلنا إعادة ترقيمها بدءا من الرقم 1 إلى الرقم 192 .

[5] - لا تزال مخطوطة بالخزانة الداودية بتطوان ، و تقع ضمن مجموع رقم 134 .

العثور أخيرا على مجموع خطي كبير له ، فكان هو الذي عرفنا به و بآثاره ، و كأن هذا المجموع هو الذي أخرجه من العدم إلى الوجود " [6] . و الملاحظة نفسها سجلها الدكتور مصطفى الغاشي في أطروحته ، حينما حاول موقعة شخصية الرافعي ضمن انتماءاتها الاجتماعية و السياسية ، فخلص إلى أن نص الرحلة يظل المصدر الرئيس في تسليط الضوء على حياة هذا الرجل الذي تجاهلته أقلام الكتاب و المترجمين من عصره [7] . كما تختلف تقديرات المؤرخين و الباحثين في تحديد و ضبط سنة وفاته [8] .

و عموما فقد حاولنا الاعتماد - إلى جانب المعطيات التي ذكرها الأستاذ محمد داود ، و بعض الإشارات الأخرى الواردة عند صاحب الدليل و خير الدين الزركلي - على نص الرحلة من أجل صناعة ترجمة لهذا العلم التطواني ، نكشف من خلالها عن الجوانب العلمية و الأدبية و الصوفية و السياسية التي تشكل شخصية الرافعي .

---

[6] - محمد داود : تاريخ تطوان ، معهد مولاي الحسن ، 1959 ، المجلد الأول ، ص 390 .

[7] - مصطفى الغاشي : الرحلة المغربية و الشرق العثماني ، محاولة في بناء الصورة ، (ق 17 و 18 م) ، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط ، نوقشت سنة 2003 ، غير منشورة ، صص 127 – 129 . / مصطفى الغاشي : صورة الشرق من خلال " المعارج المرقية في الرحلة المشرقية " للرافعي التطواني ، مجلة التاريخ العربي ، عدد 15 ، 1421 ، صص 93 – 94 .

[8] - يجمع المؤرخون و الباحثون على أن تاريخ وفاة الرافعي التطواني غير مضبوط ، و لعل ذلك راجع إلى تجاهل أصحاب التراجم و الفهارس لهذا العلم الذي عرُف به إنتاجه الفكري و أخرجه من العدم إلى الوجود على حد تعبير مؤرخ تطوان الأستاذ محمد داود ، الذي يعتقد أن الرافعي قد طال به العمر و تأخرت وفاته إلى القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي حيث يقول : " و قد علمت من تقاريظ ديوانه أنه كان حيا عام 1110 هـ ، فكان عمره إذ ذاك سبعين عاما ، و أظن أنه عمّر أكثر من ثمانين عاما و الله أعلم " ، و التاريخ نفسه تبناه الأستاذ محمد المنوني . أما صاحب الدليل فيرى أنه كان حيا سنة 1125 هـ / 1713 م ، و يرى الدكتور عبد الله المرابط الترغي أنه كان حيا عام 1100 هـ . راجع :
- محمد داود : تاريخ تطوان ، م 1 ، ص 409 . / محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب ، من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث ، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط ، 1983 ، ج 1 ، ص 188 . / عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، دار الفكر ، بيروت ، ط 1 ، 1997 ، ص 250 . / عبد الله المرابط الترغي : حركة الأدب في المغرب على عهد المولى إسماعيل (1082 – 1139 هـ) دراسة في المكونات و الاتجاهات ، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الأدب العربي ، جامعة عبد المالك السعدي ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بتطوان ، نوقشت سنة 1992 ، غير منشورة ، ج 5 ، ص 1537 .

1 – ترجمة المؤلف :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي الأندلسي الأصل التطواني ، ولد حوالي سنة 1040 هـ / 1630 م ، حلاه الأستاذ محمد داود في ترجمته له بالفقيه الأديب الشاعر الناظم الكاتب [9] ، كما نعته الزركلي بالفقيه المتأدب و نفى عنه صفة الشاعر [10] . من أبرز شيوخه، سيدي علي بركة و الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي الذي التقى به في الحج فلازمه و قرأ عليه كتاب مناسك الحج للشيخ خليل [11].

و تظهر شخصية الرافعي المتعطشة للعلم و المعرفة في مجالسته للعلماء و حضوره لحلقات الدرس بالأزهر الشريف بمصر ، حيث جلس إلى حلقة الشيخ عبد الباقي الزرقاني و حلقة الشيخ محمد الخرشي المتخصص في علم الحديث ، و حلقة الشيخ الإمام إبراهيم الشبرخيتي قهرمان الحديث و التفسير و علم الكلام ، و حضر مجلس الشيخ سيدي عيسى بن سيدي يحيى الشاوي الذي كان يقرر في علم التوحيد . و بمسجد الإمام الفاكهاني جلس الرافعي إلى حلقة الشيخ خليل اللقاني ابن العلامة إبراهيم اللقاني مؤلف كتاب الجوهرة ، و الذي كان يقرر في علم السير . و في طريقه من مصر إلى مدينة بولاق التقى بالشيخ شرف الدين الفقيه العالم الناظر على زاوية سيدي الشيخ الدسوقي ، فحدثه عن مناقب الأئمة الأربعة . و بمدينة الإسكندرية التقى بالفقيه التونسي الشيخ محمد جنين الذي أطلعه على كتاب " محاسن الإعلام في تاريخ الجزيرة بانتظام " للإمام البكري ، و ذكر الرافعي أنه سبق له الاطلاع على هذا المؤلف في المغرب ، و أطلعه كذلك على تأليف له في تلخيص كتاب نفح

[9] - محمد داود : مرجع مذكور ، ص 390 .
[10] - خير الدين الزركلي : الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 15 ، 2002 ، ج 6 ، ص 250 .
[11] - الرحلة ، ص 80 .

الطيب للإمام أحمد المقري . كما جالس الفقيه سيدي علي الفياض المتخصص في الفقه و الحديث و العربية .

و لم يقتصر دور الرافعي في تلك الحلقات و المجالس العلمية على التلقي فحسب ، بل كانت له مشاركات وازنة تكشف عن باعه الطويل في مجال العلم ، و لعل أبرز مثال على ذلك هو إجابته عن سؤال أحد الطلبة بجامع الأزهر الذي سأله عن رواية صريحة في تقسيط ختم القرآن ، فأجابه الرافعي بأن له روايتين أخذهما عن علماء الوقت ، و لما قرأهم عليه طلب منه أن يكتبهما له في بطاقة ، فنظمهما في قصيدتين [12] .

و في جانب التصوف ، يكشف لنا نص الرحلة النقاب عن شخصية الرافعي المتصوفة الربانية من خلال حرصه على زيارة قبور الأولياء و الصالحين و التوسل بهم في قضاء الحوائج الدنيوية ، و إيراده لكرامات الأولياء و مناقبهم ، و مواظبته على قراءة و ختم كتاب دلائل الخيرات كل يوم في حالتي الظعن و الإقامة .

فبالنسبة لزيارة قبور الأولياء و الصالحين ، نجد الرافعي من خلال رحلته هاته قد جعلها طقسا رئيسا لابد من القيام به ، حيث استغل إقامته بمصر القاهرة لزيارة قبور و رياض سيدنا الحسين (المشهد الحسيني) ، و الشيخ عبد الوهاب الشعراني و شيخه سيدي علي الخواص ، و قبر الإمام سيدي محمد بن الحنفي و قبر الإمام أبو الحسن الششتري و روضة الإمام الرفاعي و قبر العلامة البقيني و قبر الإمام القسطلاني و الإمام العيني [13] . و بمدينة الإسكندرية حرص الرافعي على زيارة قبر أبي العباس المرسي وقبر تلميذه يقوت الحرشي أو ياقوت الحبشي و قبر الإمام ابن الحاجب

[12] - الرحلة ، صص 58 – 59 .
[13] - الرحلة ، صص 50 – 51 .

و الإمام بن الأسمر و الإمام الطرطوشي [14] . و قد كان كثير التردد على ضريح الإمام أبي العباس المرسي حيث كان يقرأ حزبه المشهور هناك [15] ، و ربط علاقة ودية مع القائم على روضته السيد إبراهيم بن صالح الذي أطلعه على كتاب في مناقب السادات الشاذلية [16] .

إلى جانب زيارة قبور الأولياء و الصالحين قصد التبرك بها و الدعاء عندها و التوسل بجاههم ، يتجلى البعد الصوفي في شخصية الرافعي من خلال اعتقاده في كراماتهم المجربة و ذلك بتطبيقه ما أمره به أحد أصدقائه المصريين في الدعاء بجمع الشمل مع ولده [17] بعدما كان حائرا مترددا في أمره هل يذهب إلى مدينة رشيد لكي يتحسس خبره ؟ : **" أفلا أدلك على خير من ذلك و يحصل لك فائدة للفرج و الخير المتدارك ؛ عليك بصلاة ركعتين عند السحر و اتل سورة الإخلاص مئة مرة و كن لهذا الكنز مدخرا ، و انو ما تخرج من الوعدة [18] للسادات المالكية و هم : الإمام ابن القاسم و أشهب و أصبغ ، تجتمع بولدك قريبا من غير شك و لا مرية ، فهذا الأمر لمن طلب عندنا شيء بمصر معلوم مشهور عند كل الناس ، و بقضاء الحوائج متواتر محتوم "** [19] ، فماذا كانت النتيجة ؟ يجيب الرافعي باندهاش كبير قائلا : **" فبينما أنا في إقبال و إدبار و قد اعتص علي تجاريع كاسات الاصطبار ، إذ لاحت لدي بوارق البشرى و صاحت علي هواتف الفرح و السرور و اليسرى ، أن قد نلت غاية**

---

[14] - الرحلة ، ص 155 .
[15] - الرحلة ، ص 159 .
[16] - نفسه .
[17] - اصطحب الرافعي معه ولده أحمد في هذه الرحلة الحجازية ، و حيل بينهما في جزيرة رودس - التي ظلوا محاصرين فيها لعدة أيام - بعد نزاع وقع بين بعض الحجاج و طاقم السفينة التركية التي ركبوها في اتجاه مدينة رشيد ، و كان سبب النزاع هو رفض طاقم السفينة السماح لبعض الحجاج الذين تأخروا من الصعود على متن السفينة ، فاحتج بعض الحجاج المغاربة و منهم الحاج أحمد ابن الرافعي و دخل في عراك مع بعض أفراد الطاقم ، الذي قرر إعادتهم في زورق إلى الجزيرة ، في حين اتجه الرافعي إلى مدينة رشيد. أنظر : الرحلة ، صص 29 – 30 .
[18] - يقصد النذر .
[19] - الرحلة ، ص 54 .

المنى و ذهب عنك البؤس و السوء و العناء ، فها ولدك قدم مع رفقائه ، فقم و بادر إلى لقائه ، فبهت ! و سرت للهاتف منصتا و القلب قد طار لمن بالبشائر قد أتى ، و وقفت وقوف راج و أضاء علي ما كان داج ، فحمدت الله حمدا كثيرا و شكرناه على نعمه شكرا غزيرا ، و بادرت في الحين إلى لقائهم " [20] .

و بعد ما جمع الله شمله بولده الحاج أحمد قرر الرافعي الوفاء بنذره : " **فانتدبت إلى إخراج الوعدة و الزيارة لقبور الصالحين و الشكر لله وحده ، و بادرت إلى زيارة رجال القرافة لأن التشبث بهم أمن من كل مخافة ، قبور لهم حظ متين فكل صعب بقدرهم عند الله يلين** " [21] .

و لاعتقاده الراسخ في كرامات الأولياء و السادات ، أورد الرافعي في رحلته الكرامة التي حدثه بها الشيخ إبراهيم بن صالح القائم على ضريح أبي العباس المرسي ، عن كرامات الشيخ أبي الحسن الشاذلي مع الإمام بن عرفة الذي كان مواظبا على قراءة الحزب الكبير حيث قال : " **أن بعض السادات حدثه بإسناد صحيح تلاقا الخلف عن السلف ، أن الإمام ابن عرفة كان يقول في مجلس علمه بجامع الزيتونة : أن من واظب على قراءة الحزب الكبير المعروف للإمام الشاذلي رضي الله عنه كل صباح لقنه الإمام الشاذلي حجته ، فلما مات الإمام ابن عرفة رُئِيَ في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : لما وضعت في قبري جاءني الملكان فقالا لي : من ربك ما دينك و من نبيك ؟ قال : فتلجلج لساني ، و إذا برجل حسن الوجه قام بين يدي الملكان فقال : الله ربه و دينه الإسلام و نبيه محمد عليه السلام ، فانصرفا عني و قد كفيت حجتها ، فتعلقت بالرجل و قلت له : من أنت الذي من**

---

[20] ـ نفسه .

[21] ـ نفسه .

الله علي بك ؟ قال : أنا أبو الحسن الشاذلي أتيت ألقنك حجتك ، ألست أنت القائل من واظب على حزبي الكبير لقنته حجته ؟ و انصرف عني ، أو كما قال كلام هذا معناه . " [22]

كل هذه المقاطع و غيرها كثير ، تكشف لنا عن شخصية رجل متصوف محب لأولياء الله الصالحين و متعلق بجاههم و قدرهم المنيف ، و معتقد فيما خصهم به الله من بركات و أيدهم به من كرامات ، و لعل ذلك ما دفع بعض الباحثين إلى اعتبار أن الرافعي رجل دين و علم ظل بعيدا عن مخاضات السياسة [23] ، فالمعلومات التي تتعلق بمواقفه السياسية و مواقفه من السلطة شبه منعدمة ، باستثناء رسائله في دعم المجاهدين لتحرير الثغور المحتلة و التي ضمنها في كتابه " غرر المقاصد و المطالب " ، و بعض القصائد الشعرية التي نظمها في نفس الموضوع . كما يتضح موقف الرافعي المناصر لسياسة المولى إسماعيل في تحرير الثغور من خلال حديثه مع أحد المصريين الذي أراد الانتقاص من شأن المغاربة متهما إياهم بالتقاعس عن الجهاد ضد الكفار ، حيث قال : **"أخبرك أن بالمغرب بعض الثغور احتووا عليهم الكفار و صاروا نكاية للإسلام و قد ملكوهم جهار ، فذلك من الأمر القبيح بالمغرب و معره و فيه للإسلام شين و مضره "** [24] ، فرد عليه الرافعي قائلا : **" الأمر كما قلت صحيح و العذر في ذلك لا أجد عنه تلويح ، لكن قد برق و لله الحمد بارق النصر و الفتح ، و بدا نجم السعادة باليمن و الخير و النجح ، و ذلك أن ملكنا مولانا إسماعيل قد فتح ثغرين منهما الآن ، و كاد الأمر يعود كما كان من نشر الإسلام بتلك الأماكن و يعود قرير العين من بالمغرب ساكن "** [25] .

---

[22] - الرحلة ، ص 162 .
[23] - مصطفى الغاشي : الرحلة المغربية ... ، ص 128 .
[24] - الرحلة ، ص 62 .
[25] - الرحلة ، صص 62 – 63 .

إن موقف الرافعي من قضية تحرير الثغور و تزكيته لسياسة السلطان المولى إسماعيل الجهادية ، لا يخرج عن موقف جميع المغاربة عامة و خاصة .

2 – العمارة و العمران في رحلة " المعارج المرقية في الرحلة المشرقية " :

من الملاحظات الأساسية التي ينبغي الإشارة إليها قبل الدخول في دراسة هذا الموضوع ، هي التغييرات و التجديدات التي عرفتها العمارة في بعض المدن التي زارها الرافعي بين فترتي ذهابه و إيابه أو بين زيارته لها قبل رحلته الحجازية هاته و خلالها ، و يتعلق الأمر بمدينة الجزائر التي يبدو من خلال حديث الرافعي عنها مدى ارتباطه الوثيق بها و كثرة تردده عليها لزيارة أصهاره و معارفه [26] ، مما أتاح له الفرصة للوقوف على ما استحدث فيها من معالم جديدة لم تكن موجودة بها خلال زياراته قبل حجه أو خلال مرحلة ذهابه إلى الحجاز .

انطلاقا مما سبق ارتأينا التمييز في أوصاف الرافعي للعمارة بين الأنواع الثلاثة الرئيسة و هي العمارة الدينية و العمارة الدفاعية و العمارة المدنية .

2 - 1 - المآثر الدينية :

تتعدد المنشآت الدينية في المدن الإسلامية ، و تمثل الجوامع و المساجد الأساس الأول لكل مدينة ناشئة ، حيث يجمع الكثير من الدارسين على أن الجامع هو أول ما يختط في المدن الإسلامية و تتشعب من حوله المرافق الأخرى من حمامات و أسواق و فنادق و مساكن ... فيكون بمثابة القطب

[26] - يجب التذكير في هذا المقام أن علاقة الرافعي بالجزائر و وجود أصهاره بها ، تعكس نوعا من العلاقة القوية التي تجمع المغاربة و الجزائر ، خاصة تلك الأسر التي ترجع أصولها إلى الجزائر و استقرت بتطوان منذ القرن 17 م .

الذي تنتهي إليه الشوارع و الأزقة و العنصر المعماري الرئيس الذي يتحكم في توجيه البنايات الأخرى في المدينة [27].

بالنظر إلى المكانة الروحية للمسجد و وظيفته الدينية التعبدية و أدواره الاجتماعية و التعليمية و حتى السياسية ، اعتنى المسلمون بعمارة المساجد و تنافسوا في تخطيطها وهندستها ، و اعتنوا بتنميقها و زخرفتها أيما اعتناء حتى صارت تشكل أهم المعالم المعمارية التي تجسد خصوصيات و مميزات الحضارة الإسلامية عبر مختلف الحقب و العصور التاريخية . و من هذا المنطلق شكلت المساجد و الجوامع أهم المآثر الدينية التي خصها الرحالة بالوصف الدقيق رغبة منهم فيما ينالونه من الأجر و الثواب ، و رغبة منهم في إبراز مستوى و درجات التدين بالمجتمعات الإسلامية ، ذلك أن العناية بالمساجد عمارة و زخرفة و فرشا و صيانة و نظافة غالبا ما يعكس درجة عالية من التدين و العكس صحيح . ورحلة الرافعي التطواني لم تخرج عن هذا التقليد إن لم نقل أن صاحبها أولى اهتماما فائقا لوصف المساجد و إبراز خصائصها المعمارية و الزخرفية في كل بلد من البلدان التي زارها و مكث بها مدة معينة ، فبمدينة الجزائر التي قضى بها عشرة أيام في مرحلة الذهاب و خمسة أيام في مرحلة الإياب تمكن الرافعي من معاينة ثلاثة مساجد ، فحاول إبراز العناصر و الخصائص المعمارية المميزة لكل مسجد على حده ، فب**مسجد خليل** الذي ينفتح على البحر بجوار المرسى ، استوقفت الرافعي ضخامة البناء و علوه المرتفع و قبتيه [28] التي تقع إحداهما في وسط المسجد بينما تقع الأخرى عند مدخله

---

[27] - مينة المغاري : مدينة موكادور – السويرة ، دراسة تاريخية و أثرية ، دار أبي رقراق للطباعة و النشر ، الرباط ، ط 1 ، 2006 ، ص 201 .

[28] - القبة : عنصر معماري يرتكز أساسا على قاعدة أسطوانية الشكل ، و تختلف أشكال القبب من بصلية الشكل و أهليجية و بيضوية و هرمية ، و هي من أظهر عناصر العمارة المسجدية الإسلامية . أنظر :
- مينة المغاري : مدينة موكادور – السويرة ، دراسة تاريخية و أثرية ، الرباط ، ط 1 ، 2006 ، ص 604 . / حسين مؤنس : المساجد ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 37 ، ص 120 .

، كما لم يخف الرافعي إعجابه بأنواع الرخام و الزليج [29] الذي فرشت به أرض المسجد و غشيت به حيطانه ، و أنواع النقوش التي نقشت على منبره ، كما لاحظ أن المسجد يشتمل على خمس سُدّات [30] خشبية يصعد إليها بأدراج متعرجة ، و خصة [31] (نافورة) يفور بداخلها الماء ، أما بالنسبة للصحن [32] فرغم ضيق مساحته فإن انفتاحه على البحر و إشرافه عليه أعطاه ميزة فريدة ، أما الأبواب فيذكر الرافعي أن للمسجد ثلاثة أبواب ذات أقواس من الرخام الأبيض المجلوب من بلاد الروم ، و بهذا الصدد يقول : " **و لو عاينت يا هذا مسجد خليل ذات الحسن الفائق و القدر الجليل و البناء المتطاول الحفيل و الارتفاع الشامخ الأثيل ، قد شيدت في وسطه قبة في الجو مرتفعة من غير عمود و لا سوار ، لها أركان أربعة دارت بالقبة دور السوار في غاية الصنعة و الهندسة التي في نعتها الأفكار تحار ، قد فرشت أرضه بالرخام المجزع [33] كما أن حيطانه غشي بالزليج المنوع ، جعلوا للجامع خمس سُدّات من العود في غاية الملاحة و الإتقان و الجود ، لكل منها باب بأسفله مرونق و دروج [34] يصعد إليهم بانحراف و عروج . له منبر رائق الحسن و الجمال فائق الوصف في البراعة و الكمال يعجز**

---

[29] - الزليج : قطع من الخزف ذي البرنيق تستعمل لتغطية الجدران و التبليط . مينة المغاري ، مرجع مذكور ، ص 600 .

[30] - السُدّة : في لغة أهل الحضر باب الدار و البيت و قيل الفناء و الصُفّة تكون بين يدي البيت و الظلّة تكون بباب الدار و السقيفة ، و سدة المسجد الأعظم ما حوله من الرُواق . أنظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج 6 ، سدد ص 211 .

[31] - الخصة : صهريج صغير ينبعث منه الماء ، و يوجد بالمساجد و المنازل و غيرها . مينة المغاري ، م . س ، ص 598 .

[32] - الصحن : ساحة أو فناء مكشوف داخل المسجد يكون مصدرا للضوء و الهواء لباقي أجزائه كما أنه متسع للمصلين إذا ضاقت بهم المساحة المسقوفة أو المغطاة (بيت الصلاة) ، و يضم الصحن في الأغلب نافورات يندفع منها الماء تستعمل لوضوء المصلين و إضفاء لمسة جمالية على صحن المسجد كما هو الحال في صحن جامع القرويين . أنظر :
- إسماعيل الخطيب : الضوابط الشرعية لعمارة المساجد ، ص 18 . / حسين مؤنس / المساجد ، صص 61 - 62 . / مينة المغري : م . س ، ص 601 . / خالد عزب : فقه عمارة المساجد ، مجلة العربي ، 656 ، يوليوز 2013 ، صص 45 – 48 .

[33] - الرخام المجزع : الرخام الذي يجتمع فيه لوني السواد و البياض . أنظر : المعجم الوسيط ، جزع ، ص 121 .

[34] - دروج : مفرده درجة ، عتبة من الخشب أو من الحجر تكون أجزاء السلم . أنظر : مينة المغاري ، م . س ، ص 598 .

عن كنه وصفه أهل البلاغة و البيان ، و تكل الألسن عن نعته إذ ليس له ثان ، قد نقش بأنواع من النقش البديع و طلي بالذهب و طوق بكل لون فأذهل كل بصير يا سميع ! و لهذا المسجد قبة عند الدخول بحركات لها و هندسة ، و الماء داخلها في خصة يفور و في أركانها يجول ، له صحن ضيق على ضافة البحر عال عن الأرض ، و المراكب تبصرها من هناك بالمرسى و هو منه على العرض ، له ثلاث أبواب أقواسهم من الرخام الأبيض المنقوش من عمل الروم لا يقدر قدرهم ، كما أن أمامهم أبدع ما يكون من الرخام مفروش " [35].

لا شك أن الوصف الذي قدمه الرافعي لمسجد خليل شامل و يستوعب جل العناصر المعمارية و يبرز أهم الخصائص الفنية لهذه المعلمة الدينية ، لكن يبقى السؤال مطروحا حول تاريخ عمارة هذا المسجد ، و نوع الطراز المعماري الذي ينتمي إليه (عثماني أم أندلسي) ؟

و قريبا من باب الواد يقع مسجد آخر يسمى **مسجد باب حسن** ، لعل أهم ما يميزه حسب الرافعي هو تواجد قبتين متفاوتتين من حيث الحجم ، إلا أن كلتيهما تمتازان بالعلو و الاتساع الكبيرين ، كما تمتاز القبة الثانية باشتمالها على فتحات واسعة للتهوية و دخول الضوء (طاقات) وضعت عليها شبابيك نحاسية مسيجة بشبكة من السلك ذات عيون ضيقة لمنع دخول الحشرات و غيرها ، يقول الرافعي : **" له قبتان في الجو صاعدة ، يفصلها بابان و الثانية للأولى نافدة ، للقبة الأولى تربيع و علو و اتساع ، و الثانية أكبر من الأولى و لها في الجو ارتفاع ، لها أربع طاقات** [36] **ذات**

---

[35] - أنظر : الرحلة ، صص 15 – 16 .

[36] - مفردها طاقة و هي نافذة صغيرة تدخل الضوء و الهواء ، و تسمى أيضا بالقمرية و هي فتحات مستديرة أو مربعة أو مسدسة أو مثمنة الهيئة تفتح في أعلى الجدران أو في رقاب القباب ثم تغطى بالزجاج الملون فيكون لها أثر جمالي زخرفي بديع ، و هي أكثر ما تكون في المساجد السامقة الارتفاع أو القباب العالية ، و استعمالها قديم جدا في العمارة الإسلامية . أنظر : حسين مؤنس ، م . س ، صص 130 – 131 .

اتساع و افتخار ، لكل منهم شباك من النحاس [37] **عليه شَبَكة من السلك ضيقة و بتلك الطاق تدار** " [38] . كما لاحظ الرافعي وجود روض يشمل أزهرا عطرة ملتصق بالمسجد " **بضافة المسجد روض رائق يتنسم نسيم الأزهار بالمسجد كونه بالروض لاسق كذلك** " [39] . و بباب عزون عاين الرافعي مسجدا كان في مرحلة ذهابه في طور البناء و عند عودته للجزائر بعد أداء فريضة الحج وجده قد تم و كمل إنجازه ، و لعل ما أثار إعجابه في هذا المسجد هو صومعته [40] التي " **يصعد إليها بمدارج ثنتان و الباب واحد ، فيتفاصل داخله الاثنين و كل في حيز وحده ، له في اندراجه أشكال و معاني و أحد المدارج فوق الثاني ، لا يشعر من يصعد من أحدهما بصاحبه حتى يتلاقيا بأعلاها و يكون بجانبه** " [41] .

و بجزيرة رودس التركية التي حل بها الرافعي قادما من الجزائر و اضطر للمكوث بها مدة أسبوعين تقريبا بسبب الحصار المضروب على مرسائها من قبل " عمارة الكفار " ، فكانت تلك المدة كافية للوقوف على أبرز المعالم و المآثر العمرانية التي تميز المدينة ، و خاصة المساجد و الجوامع التي لاحظ الرافعي أن لها طرازا معماريا موحدا " **جوامعها الكل قباب مربعة بها أشكال من الصنايع منوعة ، من غير سوار و لا أقواس كأن مبانيهم بنيان مرصوص لا يقاس** " [42] و ما يفسر هذا الشكل المعماري الذي اتخذته الجوامع في هذه الجزيرة حسب الرافعي هو أنها كانت في الأصل كنائس للنصارى

---

[37] - يعرف هذا الشباك بالشمسية و هو عنصر بديع من عناصر الزينة تساعد على دخول الضوء و الهواء إلى المسجد . أنظر : حسين مؤنس ، م . س ، ص 130 .

[38] - الرحلة ، ص 16 .

[39] - نفسه .

[40] - الصومعة : هي المئذنة أو المنارة ، و هي وحدة معمارية أصبحت تشكل مع القبة رمزا دالا على المسجد موضع عبادة المسلمين ، و تتخذ أشكالا شتى ما بين الأسطوانية و المضلعة و المربعة ، و تنوعت هندستها باختلاف العصور ، كما زخرف بناؤها و زين بالنقوش البديعة . أنظر : حسين مؤنس ، م . س ، صص 113 – 120 . / إسماعيل الخطيب ، م . س ، ص 19 . / خالد عزب ، م . س ، صص 48 – 51 .

[41] - الرحلة ، ص 17 .

[42] - الرحلة ، ص 26 .

فحوّلها العثمانيون بعد الفتح إلى جوامع و مساجد ، و حافظوا على شكلها و هندستها وأضافوا لها بعض العناصر المعمارية الأساسية في عمارة المساجد كالمحراب و المنبر ، حيث يقول الرافعي : " **جلهم كانت للروم كنائس ، و صوامعهم كانت بهم نواقس ، فاتخذوا لكل جامع محراب [43] و منبر [44] من الرخام المجزع ، في أعلى كل قبة طاقات مغشاة بالزجاج المنوع ، لكل بجانبيه طاقات كبرى لهم حسن و افتخار ، لهم شبابيك من النحاس أو الصفار ، أمام كل جامع صحن صغار بسوار لهم عالية و قباب عليها تدار . بجانبي كل محراب حَسْكتان [45] من الصفر الصيني حزرت لكل واحدة قنطار و نصف إن صح يقيني ، في كل واحدة شمعة بيضاء ناعمة كأنها سارية بوسطها قائمة** " [46] . و ما لفت انتباه الرافعي في بعض هذه الجوامع هو انحرافها عن اتجاه القبلة ، مما دفع الأتراك العثمانيين إلى بناء المحراب في إحدى الزوايا الموجهة نحو القبلة ، مما أدى إلى انحراف الصفوف ، حيث يقول : " **غير أني رأيت بعض المساجد منحرف عن القبلة بناء قبته ، اتخذوا له المحراب في أحد أركانه و الكل يصلي إليه و إلى جهته ، فكانت صفوفهم منحرفة جمله ، و ربما حاد عن المحراب من لم يكن حوله** " [47] . و فيما يتعلق بأنواع

---

[43] - المحراب : هو الحَنْية أو التجويف في جدار القبلة . أنظر : حسين مؤنس ، م . س ، صص 66 – 71 . / مينة المغاري : جدار القبلة و بلاط المحراب ، الدلالات و الوظائف ، ضمن ندوة خصوصيات معمار المساجد بالمملكة المغربية ، الرباط ، 18 يونيو 2007 ، ص 45 .

[44] - المنبر : المنبر في اللغة مرقاة الخطيب ، و سمي منبرا لارتفاعه و علوه ، و عندما بني مسجد الرسول صلى الله عليه و سلم كان منبره أول الأمر مجرد ارتفاع في الأرض إلى جانب موضع المحراب ، و ظلت المنابر على هذه الصورة حتى أيام معاوية فصنع لنفسه منبرا خشبيا متنقلا من ست درجات ، و يمكن التمييز في المنابر بين الثابتة و المتحركة . أنظر : حسين مؤنس : م . س ، صص 72 – 76 . / إسماعيل الخطيب : م . س ، ص 17 .

[45] - الحَسَكة : تعني عند أهل المغرب شمعدان كبير مشعب ، و هو من النحاس و من البلور أيضا . و قد سميت بهذا الاسم لفروعها المحددة من غير شك . أنظر : رينهارت دوزي : تكملة المعاجم العربية ، ترجمة الدكتور محمد سليم النعيمي ، ط 1 ، العراق ، 1981 ، ج 3 ، ص 170 .

[46] - انفسه .

[47] - نفسه .

الفرش بهذه المساجد لاحظ الرافعي أن " **بعض الجوامع بزرابي مبثوثة مفروشة و بعضها بحصور بديعة منقوشة** " [48] .

و بمدينة القاهرة التي طالت بها مدة الإقامة لتزيد عن شهر ، كان أول ما قام به الرافعي بعد الوصول إليها هو البحث عن جامع الأزهر منارة العلوم و قبلة الطلاب ، فانشغل بوصف مجالس العلم و حلقات التدريس عن وصف عمارة هذا الجامع العظيم ، إلا أن ذلك لا ينطبق على باقي المساجد و الجوامع التي زارها بمصر ، و لعل أول ملاحظة سجلها الرافعي في هذا المقام هي كثرة المساجد بمدينة القاهرة و تكافؤ توزيعها عبر مختلف المناطق و الأحياء حيث يقول : " **و كم مسجد بمصر مما لا يحصى و لا يرام بوصف و لا يستقصى ... كل حومة لها جامع للصلاة و للعلوم مصدره** " [49] ، فجعل يعدد المساجد التي زارها مبديا إعجابه بهندستها المعمارية و خصائصها الزخرفية قائلا : " **فلو شاهدت يا هذا جامع الأشرافية و جامع الغورية و جامع المؤيد و جامع البرقوقية و جامع الحاكم و جامع طيلون و جامع عمرو بن العاصي ، لحارت منك الظنون !** " [50] . و من الملاحظات الأخرى التي استرعت انتباه الرافعي هي التشابه الكبير بين مساجد القاهرة إن على مستوى العناصر المعمارية أو على مستوى الخصائص الفنية و الزخرفية ، فبالنسبة للعنصر الأول يقول : " **رأيت لكل مساجد مصر العظام أربع محاريب في صف واحد للأئمة الكرام ؛ يصلي الحنفي ثم الشافعي ثم المالكي ثم الحنبلي و هو ضعيف ، و للكل منابر ، و لا يخطب سوى الحنفي و الشافعي ، و لا منبر لغيرهما يقف** " [51] . أما على المستوى الفني و الزخرفي فيقول : " **وقد فرشت أرضهم بالرخام الملون المصنوع ، و نقشت حيطانهم**

---

[48] - نفسه .
[49] - الرحلة ، ص 47 .
[50] - الرحلة ، ص 45 .
[51] - الرحلة ، ص 47 .

و طلي سقفهم بالذهب كأنهم كواكب تشرق و تضوع ، للكل سواري من الرخام المجزع من أبيض و أصفر و أخضر و أحمر و من كل لون منوع " [52] . و بعد ذلك نجد الرافعي يصف لنا الخصائص و المميزات التي لفتت انتباهه في بعض مساجد مصر كمسجد أحمد بن طولون و مسجد الغورية و مسجد عمرو بن العاص ... فبالنسبة لمسجد ابن طولون تمكن الرافعي من رفع قياساته في الطول و العرض **" قد كنت خطوت بجامع طيلون في الطول مئتين و عشرين خطوة و في عرضه مئة و تسعين بسير غير سريع و لا كبوة "** [53] ، كما تمكن من قراءة و وصف بعض النقوش الخطية التي توجد على جدرانه **" شاهدت بحائطه عند الدخول مكتوب : بسم الله الرحمان الرحيم بخط فائق معتدل يهيج القلوب ، في عرض كل حرف شبر كامل ، طوله كالسارية معتدل شامل ، في طول بسم الله خمس عشرة خطوة من الباء إلى الميم ، خطه مرونق متقون خطره جسيم "** [54] . أما بمسجد الغورية فقد تركزت مشاهدات الرافعي حول عنصر الإضاءة الذي يميز هذا المسجد عن باقي مساجد مصر ، و خاصة الثريا الضخمة الفائقة الحسن و الجمال ، التي يزدان بها سقف المسجد حيث قال : **" قد شاهدت بجامع الغورية ثرية من السفار في غاية الحسن و الجمال مع الافتخار ، ذكر لي شاعلها أنها تشمل ألف مصباح توقد في سائر ليالي رمضان إجلالا و تعظيما لشهر الرحمة و الغفران ، أيضا أخبرت أن بجامع الغورية من المصابح أربعة آلاف توقد بهذا الشهر و الأمر واضح "** [55] . و بمسجد عمرو بن العاصي لفت انتباه الرافعي ثلاثة أمور أساسية هي : اتساع الصحن و قدم البناء و الخزانة التراثية التي توجد في صف المسجد الأول : **" فإذا به مسجد في غاية الكبر قد حاز مراتب الحسن و نُظِمَ نَظْمَ الدرر ، إلا أنه قديم البناء ، في صحنه نخلات و في اتساعه يحكي وطنا ، فلذلك سمي بالفسطاط لأنه**

---

[52] - الرحلة ، ص 46 .
[53] - الرحلة ، ص 45 .
[54] - الرحلة ، صص 45 – 46 .
[55] - الرحلة ، ص 47 .

في غاية الاتساع و الشطاط ، شاهدت في خزانته بصفه الأول أسبق مصحف نسخ (والال) [56] **مكتوب في جلد رق له جرم كبير على سفرين بغير نقط و لا ضبط له فخر شهير ، قيل إنه خط السيد زيد بن ثابت ، خطه يميل إلى المشرقي بل الكوفي و اللفظ ثابت "** [57] .

و في مكة المكرمة أبدى الرافعي اهتماما فائقا في وصف المشاهد المباركة ، فقدم لنا معطيات تقنية و جمالية دقيقة للمعالم الدينية بها اعتمادا على المعاينة الميدانية المباشرة ، و استنادا إلى المعلومات التي استقاها من المشرفين عن تلك الأماكن المقدسة كشيخ الحرم و إمام المالكية العلامة سيدي أحمد الغدامسي . من هنا فإن الأوصاف التي قدمها الرافعي تعكس إلى حد كبير وضعية و حالة تلك المآثر خلال الفترة التي زار فيها مكة المكرمة ، و لعل هذا ما يزها عن أوصاف بعض الرحالة الآخرين الذين اكتفوا بنقل أوصاف سابقيهم خاصة ما يتعلق بالقياسات نظرا لما تتطلبه من وقت و مجهود و خبرة كبيرة في رفعها ، الأمر الذي لم يكن متاحا لجل الرحالة في معظم الأحيان [58] .

تعددت المآثر الدينية التي خصّها الرافعي بالوصف الدقيق ، و يتصدرها المسجد الحرام الذي لاحظ الرافعي أن شكله الهندسي العام ليس مربعا كما يبدو لأول وهلة ، فاستفسر عن قياساته طولا و عرضا فقيل له : **" إن طوله أربع مائة ذراع و عرضه ثلاثمائة في غاية الكبر و الارتفاع "** [59] ، و لاحظ الرافعي أن أكثر السواري التي تحيط بالمسجد من كل الجهات من الرخام ، كما لاحظ أن عليها قباب مرتفعة موزعة بانتظام على نمط واحد : **" له من القبب في الطول خمس و ثلاثين قبة يا سؤول ، تقابل كل قبة ثلاثة قبب في العرض ، و الصفوف بينهم لصلاة الناس و للتدريس و الوعظ ، و في**

---

[56] - كذا بالأصل .
[57] - الرحلة ، ص 57 .
[58] - راجع مثلا الأوصاف التي نقلها الإسحاقي عن الرحالة ابن جبير الغرناطي و التي تتعلق بوصف البيت العتيق . م . س ، ص 423 .
[59] - الرحلة ، ص 102 .

عرضه خمس و عشرين قبة على نمط واحد ، يقابلهم أيضا ثلاث قبب على سوار أخذ المسجد منهم إربه " [60] ، ثم قاس المسافة بين السواري و حدد عرضها ، فلاحظ أن المسافة واحدة ثمانية عشرة شبرا ، كما لاحظ وجود اختلاف في عرض السواري : " **و عرض بعض السواري خمسة أشبار و البعض أوسع "** [61] . و ذكر أن الصحن وسط الجامع " **و الكعبة وسط الصحن تجلى يا سامع !** " [62] .

و عدّد الرافعي للحرم الشريف تسعا و ثلاثين بابا أشهرهم : " **باب السلام و أفخرهم جلبابا كأنه في حسنه و انتظامه لؤلؤ مكنون في صدفه و اختتامه ، كان كثيرا ما يدخل منه نبينا المصطفى ، و قد خصه عليه السلام بمزايا الاصطفاء كونه مواجها لباب الكعبة "** [63] ، و مما لفت انتباه الرافعي في أبواب الحرم هو النقوش الخطية التي توجد على جدارن بعض الأبواب كباب العباس حيث قال : " **شاهدت على باب العباس مكتوب في الحائط : محمد ، أبي بكر ، عمر ، عثمان ، علي ، بخط فائق الحسن به حائط ، لم أدر ما السر في ذلك و الخط ثابت هناك "** [64] . و عدّد الرافعي للبيت الحرام " **سبع صومعات مديرة من كل الجهات "** [65] ، و لاحظ أن أرض المسجد الحرام معظمها محصب باستثناء بعض الطرق وسط المسجد و التي تنتهي إزاء الكعبة الشريفة أو تحيط بها قد فرشت بالرخام المجزع [66] .

كما خص الرافعي بالوصف الدقيق الكعبة المشرفة ، فحدد قياساتها استنادا على رواية شيخ الحرم العلامة سيدي أحمد الغدامسي الذي قال : " **أما علو جدارها فسبع و عشرين شبرا و عرضها**

---

[60] - نفسه .
[61] - نفسه .
[62] - نفسه .
[63] - الرحلة ، ص 95 .
[64] - نفسه .
[65] - نفسه .
[66] - الرحلة ، صص 95 – 96 .

عشرين ، صح ذلك عندنا تواترا و نقلا و خبرا " [67] ، كما حدد قياسات باب الكعبة طولا و عرضا قائلا : " و باب الكعبة عال عن الأرض بثمانية أشبار و أربعة أصابع ، عرضه ثمانية أشبار ... طول الباب قدّرت له اثنا عشر شبرا ، إذ لا يصوغ لأحد أن يُباشره إجلالا ، كونه للأنام سندا و ذخرا " [68] ، و لاحظ أن هذا الباب كله مغشى بالفضة بما في ذلك قفله و خُوَصَتاه : " مغشى كله بالفضة في نمط حسن ، و قفل الباب فضة ، كذلك خرصتان و فضتهم مموهة [69] بالذهب فصارت كأنها شعلة تضوع و تلتهب " [70] . أما الملتزم فقد حدد الرافعي موقعه و قياساته بدقة متناهية حيث قال : " و الملتزم بجانب الباب طوله ثمانية أشبار من غير شك و لا ارتياب ، و هو ما بين الباب و الحجر ، من اعتنقه يكون له شاهدا في المحشر " [71] ، كما خص الحجر الأسود بالوصف الدقيق قائلا : " و الحجر في ركن الكعبة و هو الأسود ، فيا له من حجر حاز الفخار و ساد و سَوّدَ ! و هذا الحجر السعيد مدير بفضة أحرز المفاخر و عن ختمها استباح ، فضة جرمه نحو الشبر ، له رسخ في وسطه فلا شيء يماثله في قدره و نمطه ، ارتفاعه عن الأرض خمسة أشبار قد حاز شفوفا و حظا و مقدار " [72] . أما حجر إسماعيل عليه السلام فقد قال فيه : " و أما حِجر إسماعيل عليه السلام فهو كالمدير ، في دورانه أربعين شبرا على التمام ، و يسمى أيضا الحطيم و الميزاب له خطر عظيم ، له أحد عشر ركنا في المدار ، و في كل ركن له تسعة أشبار ، وركنان بجنبي الكعبة بلا بناء للداخل إلى الحجر والمار ، طول هذا الجدار ستة أشبار وعرضه ستة أشبار وأربع أصابع ، والطواف لا يكون إلا خلفه قول

---

[67] - الرحلة ، ص 98 .

[68] - الرحلة ، ص 96 .

[69] - التمويه : صباغة ذهبية وهمية . أنظر : عبد الرحيم مودن : معجم التواصل و اللاتواصل في الرحلة المغربية السفارية (الديبلوماسية) أثناء القرن 19 ، ملحق رقم 1 : معجم المعمار في الرحلة المغربية الديبلوماسية (السفارية) خلال القرن 19 ، ضمن ندوة الرحالة العرب و المسلمون ، اكتشاف الآخر ، المغرب منطلقا و موئلا ، منشورات وزارة الثقافة ، الرباط ، ط 1 ، 2003 ، ص 461 .

[70] - نفسه .

[71] - نفسه .

[72] - نفسه .

جامع " [73] أما الميزاب فقد قال فيه : " **وميزاب الكعبة وسط الحِجر يجلى ، طوله نحو الثلاثة أشبار وعرضه شبرا لا يقدر قدره حوا فضلا شامخا وفخرا ، مغشا كله بالذهب ومطلا فهو على هام الفخر أعلى وأجلى** " . كما لاحظ الرافعي وجود موضع منخفض عن يمين القائم بباب الكعبة يعتقد أنه الموضع الذي عجن فيه طين الكعبة ، فحدد قياساته قائلا : " **طوله تسعة أشبار وعرضه خمسة ، عمقه شبرا** " [74] ، و لاحظ أيضا أن في أسفل الكعبة بناء منحدر منها يسمى الشاذروان " **قيل إنه من أساس الكعبة المخصوصة بالفضل والإحسان** " [75] . و مما لاحظه أيضا بأسفل الكعبة "**أخواص عديدة من الصُّفر والنحاس لتربط بها كسوة الكعبة العاطرة الأنفاس** " [76] .

و من الأمور الأخرى التي لفتت انتباه الرافعي بالكعبة المشرفة و عبر عن استحسانه و إعجابه بها ، تلك الأعمدة الدائرة بها من كل الجهات كالسواري ، و التي وضعت فوقها جذوع خشبية تعرف بالجوايز ، علقت بها مصابيح للإنارة بالليل ، فقال : " **تدور على الكعبة من كل الجهات أعمدة كالسواري من النحاس على رؤوسهم كالجواهر مذهبة ما لهم في المثل قياس ! عددهم اثنان و ثلاثين ، أحرزوا قصبات السبق و التمكين ، بينهم جوايز من العود في غاية الإتقان و الملاحة و الجود ، توقد فيهم مصابيح معلقة تُستَضاءُ بهم الكعبة المشرفة ، فيا لهم من أعمدة حازوا قصبات السبق و الشرف ! و ساريتان هما من الرخام نظموا في الحسن أي انتظام** " [77] ، حدد الرافعي وظيفة تلك الأعمدة قائلا

---

[73] - الرحلة ، صص 96 – 97 .
[74] - الرحلة ، ص 97 .
[75] - نفسه .
[76] - نفسه
[77] - الرحلة ، ص 98 .

: " **من هذه الأعمدة يكون الطواف قد صح ذلك في كل المذاهب بلا خلاف** " [78] ، كما حدد المسافة التي تفصلها عن الكعبة قائلا : " **منهم إلى الكعبة خمس عشر خطوة على التمام** " [79] .

ثم ينتقل بنا إلى وصف مقام نبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة و السلام ، فلاحظ أن شكله الهندسي مربع ، و حدد قياساته بدقة كعادته قائلا : " **لهذا المقام ثمانية أشبار من كل الجهات** " [80] ، و ذكر أنه محاط بشباك من النحاس مذهب فيه " **قفل من الفضة مصنوع في غاية الاتقان و بالباب موضوع** " [81] ، و ذكر أن بداخل هذا الشباك يوجد الحجر الذي صعد عليه نبي الله إبراهيم الخليل منادياً بالحج ، و لاحظ أن هذا الحجر مغشى بقبة خشبية في غاية الجمال و الاتقان ، و عليها كسوة من الحرير الأسود الخالص ، و لاحظ أيضا أن خلف هذا المقام يوجد موضع متسع عليه قبة مرتفعة لها ساريتان من الرخام و هو الموضع الذي تكون فيه الصلاة .

و من بين أبواب الحرم التي خصها الرافعي بالوصف أيضا باب بني شيبة التي تقع خلف مقام إبراهيم الخليل على مسافة ثماني خطوات ، فحدد شكله الهندسي قائلا : " **و هو قوس هناك مرتفع بلا سقف عليه ، و هو متسع يصلى عنده و يدعا** " [82] .

و في محيط الحرم دائما لاحظ الرافعي وجود " **منبر من خالص الرخام ، بين المنبر و المقام ثمانية خطوات ... على بابه و مصعده شباك من الصُّفار** " [83] ، و ذكر أن هذا المنبر يخطب عليه في الجمع و المواسم . كما قدم إلينا وصفا دقيقا جدا لقبة زمزم قائلا : " **و أما قبة زمزم فهي قبة متسعة**

---

[78] - نفسه .
[79] - نفسه .
[80] - الرحلة ، ص 100 .
[81] - نفسه .
[82] - الرحلة ، ص 100 .
[83] - نفسه .

مهندسة البناء في الجو مرتفعة ، و البير المبارك وسط القبة متسع الفضاء ذو افتخار و جمال و هيئة ، قيل أن عمقه إلى سطح الماء ثلاثين ذراعا فاعلما ، و من سطح الماء إلى قعده أربعين ذراعا ، فيه ستة جرايز [84] بأدلية فيه تدلى ، نالوا فخرا و باعا ، تملا من هذا البئر العاطر الأنفاس " [85] . و ذكر أن قبة زمزم تقابل الحجر الأسود **" بينهما خمسة عشر خطوة لا أزيد "** [86] ، و بالقرب منها لاحظ وجود مخزن الكعبة الشريفة تقابله سقاية الحاج **" و هي قبة مُنيفة "** [87] . إنه وصف بالغ الدقة للمنشآت المائية بالحرم المكي و الذي يستخلص منه حجم العناية و الاهتمام الذي أولاه حكام مكة [88] لضمان تزويد الحجاج بالماء في إطار اضطلاعهم بوظيفة سقاية الحاج ، فإلى جانب الوظيفة الأساسية لهذه المنشآت اهتم الحكام بجانبها المعماري و الجمالي [89] . و ذكر أن مصلى الأئمة الأربعة إلى نواحي أركان الكعبة الأربعة ، حيث لاحظ أن لكل مذهب قبة و مقام . كما خصّ الرافعي بالوصف الصفا والمروة فقال عن الأول : **" أما الصفا فله درجتان عاليتان عن الأرض عليها ثلاثة أقواس و ساريتان في العرض ، مكتوب على الأقواس بخط فاخر مرونق فهيم : " إن الصفا و المروة من شعائر الله فمن حج**

---

[84] - مفردها جرّارة ، و يقصد بها تلك البكرة المصنوعة غالبا من الحديد و التي تستعمل لجر الدلاء في الآبار من أجل استخراج الماء .

[85] - الرحلة ، ص 101 .

[86] - نفسه .

[87] - نفسه .

[88] - حكم مكة خلال فترة حج الرافعي الشريف أحمد بن زيد الذي ينتمي إلى عشيرة ضحو زيد ، و قد عينه السلطان العثماني في هذا المنصب سنة 1096 هـ / 1684 م . أنظر : جيرالد دي غوري : حكام مكة ، ترجمة محمد شهاب ، مكتبة مدبولي ، ط 1 ، 2000 ، ص 181 .

[89] - عن اهتمام شرفاء مكة و السلاطين العثمانيين بالمشروعات المائية التي تهدف إلى تزويد سكان مكة و الحجاج و المعتمرين فيها بمياه الشرب ، راجع : عادل غباشي : المنشآت المائية لخدمة مكة و المشاعر المقدسة في العصر العثماني ، دراسة حضارية ، الأمانة العامة لمكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ، ط 1 ، مكة المكرمة ، 1420 هـ / 1990 م . / هشام فوزي عبد العزيز : جوانب من الحياة الاجتماعية و الاقتصادية بمكة المكرمة في عامي 1201 – 1202 هـ / 1787 – 1788 م ، من خلال " الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية " للمراد ابادي ، مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة التاسعة و الثلاثون ، محرم 1434 هـ ، صص صص 93 – 94 .

البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما و من تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم "[90] . و قال عن الثاني : " و للمروة قوس واحد متسع له درجتان يصعد عليهما الحاج و يرتفع "[91] ، و حدد المسافة التي تفصل بينهما قائلا : " هذا و ما بين مروة إلى الصفا ستمائة خطوة بلا شك فاعرفا "[92] .

و بمزدلفة قدم لنا الرافعي وصفا معماريا دقيقا للمشعر الحرام و عناصره قائلا : " أما المشعر الحرام فهو مسجد بلا سقف ، مبنى مرتفعة جدرانه من ثلاث جهات ، له صومعة و محراب حسن و منزلة حسنى ، و الجهة التي تقابل القبلة ما لها جدار سوى أدرج ثنتان أو ثلاث يتصاعد منها للمسجد ، أحرزت كل فضل و افتخار "[93] ، و لاحظ بقربه ساقيتين " غامقتان ينزل لهما بأدرج ، ماؤهما كثير عذب لهما أدلية و الماء بهما يعرج "[94] . و نظرا لأهمية و خطورة التمييز بين الحلّ و الحرم بالنسبة للواقف بصعيد عرفات قدم الرافعي وصفا بالغ الدقة و الضبط للعلمين اللذين بجبل عرفة فقال : " و هما جداران واقفان بسفح الجبل أحدهما عن يمين الداخل و الآخر عن يساره نعم و الكل في منزل واحد و محل ، طول كل واحد نحو العشرة أشبار ، ثم عرضها نحو الأربعة أشبار ذا هيبة و افتخار ، و حزرت بين هذين العلمين بغير تحقيق نحو الخمسين خطوة معتدلة المشي يا صديق ، و العلمان هما حدود بين الحِلّ و الحرم "[95] .

و من بين المساجد الأخرى التي زارها الرافعي بمكة و استرعت انتباهه فخصها بالوصف الدقيق الذي أبرز فيه مميزاتها المعمارية و خصائصها الجمالية ، مسجدي نمرة و منى ، حيث قال

---

[90] ـ الرحلة ، ص 102 .
[91] ـ الرحلة ، ص 103 .
[92] ـ الرحلة ، صص 102 – 103 .
[93] ـ الرحلة ، ص 104 .
[94] ـ نفسه .
[95] ـ الرحلة ، ص 105 .

في وصف المسجد الأول : " و جامع الثغرة هذا له أربعة أبواب مقابلة للقبلة ، له سبعة عشر قوسا على سَوَارٍ تعلوهم قباب ، أمام المحراب و حوله طوله مائة و خمس و خمسين خطوة و عرضه مائة و ثمانية و عشرين ، له قدر عظيم و حضوة أكثره بلا سقف يا سميع و أرضه محصبة ، الجميع له صومعة في إحدى جوانبه مديرة عالية ، و النور يلوح و يصعد من كل جانبه " [96] . و قال بخصوص مسجد منى : " أما مسجد منى فهو مسجد جليل ذو هيئة حسنة و بناء حفيل و يسمى مسجد الخيف و مسجد علي ، فيا له من مسجد حوى قدرا علي ! له ثلاثة أبواب أحدهم مقابل للقبلة و الثاني عن يمين الداخل و الثالث عن يساره ، و هم في غاية الاتقان جملة ، له صومعتان إحداهن على الباب و الثانية وسط المسجد إلى جانبها قبة فيها اعتبار لأولي الألباب ! و طول هذا المسجد مأتي خطوة من أوسط الخطى ، له إحدى و عشرين قوسا بإزاء المحراب ، كل قوس يقدمه أربع صفوف ، و على الكل قباب ، عن يمين المحراب منبر كالذي بجامع الثغرة مبنى ، صفة هذا الجامع كجامع الثغرة فيا لها مسجدان ما أشرف و أسنى ! غير أن بجامع منى قبة عظيمة كما وصفنا وسط الصحن ، وصومعة قائمة بجانبها أزالت عن القلب كل ضغن " [97] .

يبدو من خلال هذا الوصف مدى دقة الملاحظة التي يتميز بها الرافعي حيث استطاع تبيُّن الاختلافات و الفروق بين المسجدين و التي ترجع أساسا إلى اختلاف المساحة ، فمسجد منى مساحته -كما يتضح من خلال وصف الرافعي - أكبر بكثير من مساحة مسجد ثغرة ، و هذا ما يفسر كثرة الأقواس و كبر حجم القبب و توفره على صومعتين ، إلى جانب هذه الاختلافات وقف الرافعي

[96] - الرحلة ، صص 105 – 106 .
[97] - الرحلة ، صص 111 – 112 .

على عناصر التشابه بين عمارة المسجدين و التي تتجلى في وحدة الشكل و الطراز المعماري الذي يعتمد الأقواس و القبب ، و في التشابه بين منبري المسجدين .

و بطيبة مدينة الرسول صلى الله عليه و سلم ، ركز الرافعي على وصف المسجد النبوي و الروضة النبوية الشريفين ، نظرا لضيق الوقت و قصر المدة التي قضاها بها ، و التي لم يكن يفارق فيها المسجد النبوي ، و يلاحظ أن التركيز على هاتين المعلمتين كان إيجابيا ؛ إذ مكن الرافعي من تقديم وصف تفصيلي دقيق لكل العناصر المعمارية ، و إبراز الخصائص الجمالية لها بشكل يجعلنا قادرين على تمثلها بوضوح كبير . ففي وصفه للمسجد النبوي الشريف ذكر أن عدد أبوابه أربعة أبواب هي باب السلام و باب الرحمة أو الخشية و هما يقعان عن يمين القائم للقبلة ، يقابلهما من الجهة الأخرى أمام الروضة النبوية باب جبريل أو الرخا و باب النسا ، و ذكر أن للمسجد خمس صومعات يؤذن بها سائر الأيام و الجمع ، و له صحن محصب في وسطه نخلتان يدور بهما شباك خشبي ، و به موضع مبني كالقبة هو مخزن الروضة [98] .

و من العناصر المعمارية التي لفتت انتباه الرافعي بالمسجد النبوي ، المحاريب حيث ذكر أن به ثلاثة محاريب أولها المحراب الذي يعتقد أنه لرسول الله صلى الله عليه و سلم والذي قال في وصفه : " **عاينت محرابا بين الروضة و المنبر قيل إنه محراب نبينا عليه السلام فما أنمى و أفخر ! له في دورانه ثمانية أشبار ، و طوله إلى دوران القوس سبعة أشبار و أربع أصابع ، و فيه للأنام اعتبار ! و هو خارج عن دوران السوار و حَوْزِهِنَّ ، فهو من المحاريب الثلاثة أفخرهن** " [99] ، و بعد تحقيقه في الأمر و باستفساره أهل الذكر من العلماء الأعلام ، تبين له أن ذلك الموضع الذي يوجد في المحراب كان مُصَلّاه

[98] - الرحلة ، ص ص 127 – 128 .
[99] - الرحلة ، ص 128 .

، لأنه صلى الله عليه و سلم لم يكن له محراب ، رغم أن قوس المحراب نقش عليه : " **هذا محراب رسول الله سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم** " [100] . أما المحراب الثاني فهو بجانب المنبر من الجهة الأخرى : " **قيل أنه صنعة السلطان سليمان ليكون له فرطا و ذخرا** " [101] ، و أما المحراب الثالث فهو محراب سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه و هو : " **قدّام محراب النبي عليه السلام بسبع عشر شبرا في غاية الكبر و الاتقان ، و له بالمسجد انتظام ، يفصل بين محراب عثمان و محرابه عليه السلام شباك من العود على طول المسجد ، يخلله أقواس و أبواب يمر بهم الناس و هم في غاية الاتقان يسحران أولي الألباب** " [102] ، و لاحظ الرافعي أنه أمام محراب عثمان قبة كتب على جوانبها : " **في بيوت أذن الله أن ترفع و يذكر فيها اسمه** " **إلى قوله** " ، "**بغير حساب** " ، و على دائرة المحراب كتب : " **هذا محراب عثمان بن عفان رضي الله عنه** " [103] . و لاحظ أن للمسجد عشرة صفوف متسعة من محراب عثمان إلى الصحن ، في كل صف خمس عشرة سارية ، و لاحظ أن السواري التي بالقرب من محراب عثمان : " **مديرة كل منهم بالزليج الأخضر ذات انتظام** " [104] . و ذكر أن أرض المسجد كلها مفروشة بالرخام ، و لاحظ أن صحن المسجد تحيط به : " **من الثلاث جهات بلاطات ما دون الجهة الأولى التي حازت المفاخر و الخيرات ، لكل بلاط ثلاثة عشر سارية في الطول متواليات تحدهم ثلاث صفوف متقابلات** " [105] .

---

[100] - نفسه .
[101] - الرحلة ، ص 129 .
[102] - الرحلة ، ص 129 .
[103] - نفسه .
[104] - نفسه .
[105] - نفسه .

إلى جانب المحاريب اهتم الرافعي بوصف منبر المسجد النبوي ، فحدد موقعه انطلاقا من المحراب قائلا : " **بينه و بين منبره المنيف إحدى و ثلاثين شبرا** " [106] ، كما حدد المادة التي صنع منها : " **و هذا المنبر الآن من خالص الرخام أبيض منقوش مخرم** " [107] ، و حدد قياساته في الطول و العرض و عدد أدراجه : " **طول هذا المنبر المديد في الأرض تسعة عشر شبرا و أربع أشبار في العرض ، له إحدى عشر درجة كلها بالخيرات مندرجة** " [108] ، ثم بين الفرق بين منبره صلى الله عليه و سلم و هذا المنبر الذي صمم في نفس الموضع قائلا : " **و هو في موضع منبره الذي كان يخطب عليه بلا خلاف بين العلماء ، ليبقى الثواب حاصل لمن صلى لديه ، كان منبره عليه السلام من العود له ثلاثة أدراج من عود الساج** " [109] . و قبالة هذا المنبر لاحظ الرافعي سُدّة من الرخام الأبيض الشامي مرتكزة على ثماني سواري من الرخام [110] .

إلى جانب وصف المسجد النبوي اهتم الرافعي بوصف الروضة النبوية الشريفة ابتغاء الأجر و الثواب ، فقدم لنا معطيات بالغة الأهمية عن الشكل الهندسي الخارجي للروضة و قياساتها طولا و عرضا ، و موقعها داخل الحرم المدني ، إلى جانب معطيات تفصيلية دقيقة عن مكوناتها الداخلية ، كما اهتم بقراءة النقوش الخطية التي تعلو الأبواب و القبب ... ففيما يتعلق بشكلها الهندسي لاحظ الرافعي أن شكلها مربع و تأكد له ذلك بعد رفع قياساتها : " **كنت حسبت من كل جانب من جوانب الروضة**

---

[106] - الرحلة ، ص 128 .

[107] - نفسه .
- يستشف من خلال المادة التي صنع منها هذا المنبر أنه من النوع الثابت ، لأن المنابر المتحركة غالبا ما تكون مصنوعة من مادة الخشب نظرا لخفة وزنها ، و قد انتشر هذا النوع من المنابر المتحركة في مساجد الغرب الإسلامي خاصة . أنظر :
- إسماعيل الخطيب : الضوابط الشرعية لعمارة المساجد ، ضمن اعمال ندوة " خصوصيات معمار المساجد بالمملكة المغربية " الرباط ، 2 جمادى الثانية عام 1428 هـ / 18 يونيو 2007 ، صص 17 – 18 .

[108] - نفسه .

[109] - الرحلة ، ص 128 .

[110] - الرحلة ، ص 129 .

و العلم لله خمس و تسعين شبرا " [111] ، كما لاحظ ضخامة بنائها و اتساعها الكبير قائلا : **" و الروضة في غاية الكبر و الارتفاع ، قيل أن روضة داخل روضة ، و الروضة الخارجة هي ذات اتساع "** [112] ، و ذكر أن للروضة الخارجية قبتان يحصنانه **" ليكون لها حصانة و امتناع ، قد نص على ذلك غير ما واحد من العلماء الوُرّاع "** [113] ، أما بالنسبة لموقعها داخل الحرم المدني فقد حدده الرافعي بدقة كعادته قائلا : **" بينها و بين باب جبريل أربع عشر شبرا و القدر جليل "** [114] ، و ذكر أن للروضة : **" بابان عظيمتان القدر ذات حسن و جمال و فخر ، لكل منهما وَخَتَان** [115] **مغشتان بالفضة ، و خُوصَتَان من لُجَيْن** [116] **فاخرتان لمن يريد فتح الباب ، و فضه أحد البابين مقابل للقبلة ... و الباب الثاني داخل المسجد من الجهة الأخرى يسمى باب الرحمة ، و هما سندا للعباد و طهرا "** [117] ، و ذكر أن للروضة شبابيك بعضها من الحديد و البعض الآخر من الصُفر : **" و هذه الروضة الشريفة لها شبابيك من حديد مهندسين الصنعة من ثلاث جهات منيفة ، و أما من جهة محراب عثمان فله شباك من الصفار ما للكل شبيه في المحاسن و الافتخار ! كانوا كلهم في القديم مولعين بماء الذهب لكن زال أكثره و ذهب "** [118] ، و لاحظ أنه بين كل شباك من هذه الشبابيك فضاء متسع مفروش بالرخام الأبيض بنحو الثمانية أشبار .

أما بالنسبة لعناصر الروضة من الداخل فقد استرعى انتباه الرافعي الكوكب الدري الذي يوجد عند رأس النبي صلى الله عليه و سلم من جهة محراب عثمان بن عفان **" أما الكوكب الدري لم**

---

[111] - الرحلة ، ص 131 .
[112] - الرحلة ، ص 131 .
[113] - الرحلة ، ص 131 .
[114] - الرحلة ، ص 131 .
[115] - فرخة الباب : غلق من خشب . أنظر : دوزي : تكملة المعاجم العربية ، ج 8 ، ص 37 .
[116] - لجين : اللُجَيْنُ هو الفضة ، أنظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة لجن ، ج 12 ، ص 243 .
[117] - الرحلة ، ص 130 .
[118] - الرحلة ، ص 130 .

نشاهد منه سوى القليل كونه مغير بالذهب و خطره جليل " [119] ، و من هذا الموقع يمكن مشاهدة كسوة الروضة " و هي من الحرير الأخضر مجرونة بالأبيض و الأصفر ، فكانت من هام الزمان أفخر ، و حزام وسط الكسوة من الحرير الأخضر بالذهب مطروز له خط فاخر مبين مفروز ، فوق الكوكب الدري دائرة مكتوبة بالذهب المنير : هذا قبر رسول الله صلى الله عليه و سلم السراج المنير ، تحاديه في المنزلة كالأثر قُبَّة مطروزة بالذهب الأواه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، هو إلى جانب الدائرة المذكورة دائرة مكتوبة بالذهب الشريق : هذا مقام عبد الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، تحاديها في المنزلة دائرة مطروزة بالذهب ذات صواب : هذا مقام عبد الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه " [120] .

و من الأمور الأخرى التي لفتت انتباه الرحالة بالروضة الشريفة ، النقوش الخطية التي حاول قراءتها و التعرف على محتواها و معرفة قائلها و نوع الخط الذي رسمت به قدر المستطاع ، فعلى باب الروضة الأول و حول محراب عثمان ، لاحظ الرافعي مكتوبا بالخط الكوفي الآية القرآنية : " و من الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا " [121] ، و من جهة أخرى لم يتمكن من قراءة النقش الذي كتب على لوح من الفضة بجانب شباك الصفر الذي يفصل بين الروضة و محراب سيدنا عثمان رغم تمييزه نوع الخط : " و هو مكتوب بخط كوفي لا أعرف ما الحكمة في ذلك و السر محجوب " [122] ، كما لاحظ مكتوب على شباك الروضة بخط جميل البيتين الشعريين :

[البسيط]

---

[119] - الرحلة ، ص 131 .
[120] - الرحلة صص 131 – 132 .
[121] - الرحلة ، ص 130 .
[122] - الرحلة ، 131 .

يـا سيدي يـا رسول الله خذ بيدي ** مـا لـي سـواك و لا ألوي إلى أحد

فأنت نـور الهدى في كل كائنة ** وأنت سـر الندى يا خير معتمد [123]

و على دائرة الروضة الشريفة قصيدة تمكن فقط من قراءة أولها :

[البسيط]

لمهبط الوحـي حقّ يرحل النجب ** و عند هـذا المرجى ينتهي الطلب

به تحطّ رحال السائلين فـمـا ** لسائل الدمع لا يقضيه مـا يجب

قف وقفة الذل و الإطراق ذا أدب ** عند حـضـرتـه يستلزم الأدب

و خـذ دمـه من المختار إنّ له ** دمـاً جـاه به يستنجد العرب

و مـا به لاذ يوماً من به تعبٌ ** إلا و نال و حـقّ المصطفى التعب

احـتـث احتكاكاً تحث بشرا ** هبـت هبـته تحيى به التربُ

أما باقي القصيدة فيقول الرافعي بتواضع كبير : **" و باقي القصيدة وَعَّصَ علي فهمه و لا رُمْتُ إصابة مرمى الشيخ قائلها و اسمه ، و تشكل علي بعض ألفاظها و لا قدرت بالإتيان على تمامها "** [124].

[123] - الرحلة ، ص 132 .
[124] - الرحلة ، ص 132 .

و من الأمور التي استرعت انتباه الرافعي داخل الروضة ، المبخرة الذهبية التي توجد ناحية رأس الرسول صلى الله عليه و سلم و هي " **معلقة بسلسلة ذهب ، فهي كالبدر المنير بين ثلاثة أعمدة من ذهب ، يجمع أعلى الأعمدة و يفترقن من أسفل ، في أعلى الأعمدة تفاحة من ذهب مرصعة بالدر و الياقوت الأكمل ، و المبخرة معلقة بسلسلة من الذهب وسطهن ، و هي مكللة لامعة بينهن ، إلى جانبها طاس من الذهب مصنوع ملقى على شبه مائدة من الفضة و ما عليها موضوع** " [125] ، إلى جانب هذه الأواني الذهبية الرائعة ، لفت انتباه الرافعي كثرة المصابيح و القناديل الذهبية داخل الروضة : " **و كم داخل الروضة من مصابيح الذهب و كم من قناديل و أصناف من الحجاج الفاخرة و معاقيل ، و كم أشياء لا تنحصر هناك لا يحصرها وصف و لا يلحقها إدراك** " [126] . و بإزاء روضة الرسول صلى الله عليه و سلم شاهد الرافعي مقام فاطمة الزهراء " **عليه شباك من حديد كالذي على روضة أبيها بفرخة مغشاة بالفضة ، والباب مقفول تقابل باب جبريل ، عليها كسوة خضراء مجرونة كالتي على أبيها كيف لا وهي فاطمة الزهراء** " [127] ، إلا أنه عبر عن تحفظه في كون ذلك المقام هو بالفعل مقام ابنة رسول الله : " **وكون ضريحها هناك عند الأئمة خلاف ، وقيل هي مع ولدها الحسن في قبة العباس مع بني عبد مناف** " [128] .

2 - 2 - العمارة الدفاعية :

أبدى الرافعي - من خلال رحلته - اهتماما كبيرا لوصف المنشآت الدفاعية و العسكرية بالمناطق التي زارها أو تلك التي شكلت مسار رحلته ، و كان تركيزه منصبا أساسا على وصف

---

[125] - الرحلة ، صص 132 – 133 .
[126] - الرحلة ، ص 133 .
[127] - الرحلة ، ص 133 .
[128] - الرحلة ، ص 133 .

التحصينات الدفاعية بالمنطق الساحلية و خصة المراسي و ما اشتملت عليه من ترسانة و سفن حربية راسية ، فقدم لنا معطيات دقيقة جدا عن أنواعها و أحجامها و المواد المستعملة في تشييدها و مستوى تسليحها . كما خص تحصينات المدن من أسوار و أبواب و أبراج و خندق بالوصف و التصوير .

و قبل الشروع في تحليل مشاهدات الرافعي في هذا المقام ، لابد من التذكير بأن اهتمام الرجل بوصف العمارة الدفاعية يدخل أولا في إطار اهتمامه بموضوع العمارة ، و ثانيا لكونه عايش مرحلة تحرير الثغور المغربية المحتلة من قبل الأوربيين على يد السلطان المولى إسماعيل ، و ثالثا لأنه لامس و عاين من خلال رحلته البحرية تراجع و أفول نجم القوة البحرية العثمانية مقابل تعاظم قوة الأوربيين في هذا المجال العسكري ، و هذا ما نستشفه من خلال حديثه عن جزيرة رودس التي ظلت تحت حصار " عمارة الكفار " أيام عديدة .

فبمدينة الجزائر استرعى انتباه الرافعي مرساها (مولها) الحصين ، المحاط بثلاثة أبراج منيعة مجهزة بأنفاض[129] من النحاس حيث قال : " **فلو شاهدت يا هذا مُولها[130] المشيد المتين الثابت البناء ، و حصنها الحصين خارج في البحر بأميال و الحصون به مديرة عريض مديد ، و قد أحرز أوصافا في الحسن كثيرة ، لسرك أخي رؤيته و سرت من هيكل شكله باهتا و تحققت أن اللساس[131] الدين به ثابت ، ذات أبراج ثلاث لا يكيفون بوصف و لهم في المنعة حظ و إثبات ، بأنفاض من النحاس عدة و سلاح و لامة فاخرة و عدة ، تموج بنواحيهم أبطال الرجال من كل شهم كمي له في**

---

[129] - الأنفاض : المدافع .

[130] - مول أو مون : MÔLE ، رصيف المرسى أو الميناء . انظر : عبد الرحيم مودن : مرجع مذكور ، ص 458 .

[131] - يقصد الأساس .

رهان السبق مجال " [132] . إلى جنب المول كان للرافعي وقفة بباب الجزيرة الذي يعد حصنا منيعا من حصون الجزائر ، حيث عين به ترسانة صنعة السفن و المراكب الحربية التي أسهمت في تجهيز و تزويد البحرية الجزائرية بما تحتاج إليه من قطع : " **كأن باب الجزيرة من إتقانه و منعته صرح مُمرد شيد في ضافة البحر لحسنه و بهجته ، قد شيدت أبراجه بالحجارة المنجورة و المها** [133] **و الصنعة الفائقة التي ليست لها انتهاء ، مع ما شحنت هناك من المراكب الهائلة و السفن العديدة ذات عدة كاملة ، فكم أنشأوا من مركب هناك و صنعوا ، و كم أعدوا له من عدة مما يحتاجوه إرهابا للعدو و به امتنعوا** " [134] . و من الأمور التي استرعت انتباه الرافعي بمدينة الجزائر أيضا كثرة الحصون و الأبراج حيث قال : " **و كم بالمدينة من حصون و أبراج مشحونة بالأبطال لهم بها اندراج ، كباب عزُون و باب الواد و باب الجديد و القصبة التي هي الملجأ و الاعتماد** " [135] ، و من أهم تلك الأبراج التي أثارت استحسان و إعجاب الرافعي برج الفنار الذي قال في وصفه : " **لا سيما لو عاينت برج الفنار الذي هو آية الزمان و فيه اعتبار !** " [136] .

و بجزيرة رودس استوقف الرافعي حصانة المدينة من الناحية الطبيعية و من ناحية العمارة الدفاعية المتمثلة في الأبراج و الأسوار حيث قال : " **و المدينة على شاطئ البحر في غاية المنعة و الإتقان ، و البروج تحفها من كل الجهات و الأركان ، قد عاينت ببعض الأبراج مدفع من النحاس ذو حسن و ابتهاج له أزيد من ثلاثين شبرا في الطول و أما عرضه لا أجد فيه ما أقول ، غير أن فمه قد كلت فيه ذراع مع شبر في الاتساع ، ذو صنعة فائقة و إتقان لا يعهد مثله في هذا الزمان ، و للمدينة**

---

[132] - الرحلة ، ص 15 .
[133] - المهاة : الحجارة البيض التي تبرق ، و هي البلور . انظر : لسان العرب ، مها ، ج 13 ، ص 214 .
[134] - الرحلة ، صص 14 – 15 .
[135] - الرحلة ، ص 15 .
[136] - نفسه .

سبعة أسوار داروا بها دور السوار ، لكل سور حفير في غاية العمق و الاتساع لا يكيف بوصف و لا تقدير " [137] . و كعادته اهتم الرافعي بوصف مرسى المدينة و ما اشتمل عليه من سفن و مراكب حربية ، فقدم لنا معطيات هامة جدا في هذا الباب حيث قال بشأن المرسى : " **أما مرسى روضص ففي غاية المنعة و الحراصة ، بأبراج هائلة محندسة البناء و براصه** " [138] . و ذكر أنه وجد بالمرسى مراكب عديدة تنيف على الثلاثين مركبا مزودة بمدافع خمسية تتراوح ما بين الستين و السبعين قطعة ، و أطلعه على أسماء البعض منها كالبطرونة و الريانة و المرنطة و غيرها ، و قد دفعه فضوله العلمي و اهتمامه بالجانب العسكري إلى الصعود إلى إحدى تلك السفن الحربية و نقل صورتها إلينا بنوع من الدقة و التفصيل قائلا : " **كما صعدنا إلى قبطانة تلك المراكب المرساة ، فإذا فيها خمس و تسعين مدفعا من النحاس معدة بتلك المركب و محصاة ، هائلين في غاية الصنعة و الإتقان ، ما أحسب أن لهم في القدر ثان ، و صفة هذه السفينة الحسناء : مديدة القد مرتفعة الجوانب ثابتة الأركان حسا و معنا ، لها خمس طبقات بديعة الشكل و الصفات ، في قُجِّهَا** [139] **أخي قُمْرَتَان إحداهما على الأخرى كبيرتان ، و كل منهما بالصداف و العاج مرصعة ، ذات أشجار و أغصان منوعة ، كل ذلك بالتنزيل البديع و الترصيع الفائق يا سميع ! مطلية بالمها و ماء الذهب ، يحسبها الرائي شعلة تلتهب ، طيقانها مغشاة بالزجاج الملون ، كل ذلك مطوق بألوان محشا بالذهب الإبريز كل ذلك هناك معين ، أغرب ما شاهدت بأعلى قجها المنيع ، فنار من الصفر الصيني مطلا بالذهب في شكل بديع بأرفع صنعة و نقش و هندسة ، كامل الأوصاف ما فيه خردلة من عيب و لا منقصة ، له من كل الجهات خط مخرم بديع كأنه كوكب ذري له نور سطيع ، وزنه أربع قناطير شامية ، يقوم على أعمدة من الحديد المذهب**

---

[137] - الرحلة ، ص 25 .
[138] - الرحلة ، ص 25 .
[139] - القجة : رأس السفينة أو مقدمتها .

بحركات تحبسه من كل الجهات ، سامية في قحها و قمرتيها و فنارها مطلا من الذهب خمسة أرباع بصنائع بديعة تجلى " [140] . و ذكر أن تلك المراكب صنعت بالقسطنطينية في عهد السلطان محمد خان ، و مقابل إعجابه بها و بهندستها و تصميمها و مستوى تسليحها ، أبدى حسرته على قلة الأبطال و ذهب الحماة قائلا : " **و باقي المراكب التي بالمرسى منجلبة ، لكن الكل بغير أبطال يا ليتها ولت منقلبة ! فما أغنت تلك المراكب و العدو أحاط بالبلاد من كل جانب** " [141] .

إلى جنب المراسي و الأبراج و الأسوار ، استرعى انتباه الرافعي بجزيرة رودس كثرة الرباطات الجهادية ، و لاحظ أنها تقع خارج أسوار المدينة ، و ذكر أنها مسكونة من قبل الروم الذين يمثلون السكان الأصليين للجزيرة : " **رباطاتها خارجة عن البلاد كما علم ذلك عندهم و اعتاد ، يسكنهم المغامرين من الروم و من كانت لهم البلاد سابقا خصوصا و عموم** " [142] .

تعكس هذه الصورة لدى الرافعي الأجواء العامة التي شهدها البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة الحديثة ، خاصة الصراع الإسلامي - المسيحي ، و الحضور العثماني في ذلك الصراع .

2 - 3 - العمارة المدنية :

شكل وصف العمارة المدنية جزءا كبيرا من اهتمام الرافعي ، و قد شمل هذا الوصف إلى جنب المدن و الجزر ، الدور و الحمامات و أنظمة توزيع الماء ببعض المدن و المعالم الأثرية بالمدن العتيقة ... و من الملاحظات التي يمكن تسجيلها في هذا المقام هي عنصر التركيز على البعد الجمالي في المعالم الموصوفة ، و هو ما يبرز الذوق الفني الراقي الذي يتحلى به الرحالة باعتباره ينحدر من مدينة

[140] - الرحلة ، صص 24 - 25 .
[141] - الرحلة ، ص 25 .
[142] - الرحلة ، ص 27 .

تعد عاصمة الحواضر الأندلسية بالمغرب ، إنها مدينة تطوان التي احتضنت فن العمارة الأندلسية الموريسكية . فنشأة الرافعي بهذه الحضرة الجميلة جعله يكتسب ذوق فني راقي و إحساس مرهف بقيم الجمال .

أ - وصف الجزر و المدن :

شكلت بعض الجزر و المراسي المتوسطية محطات رئيسة في طريق الركب البحري الذي ظل اعتماده خلال الفترة الحديثة ضعيف جدا بالنسبة للحجج المغربية [143] ، إلا أنه بعد ذلك نسخ سائر ركاب المغرب الأخرى و حل محلها و صار مع مر الزمن هو ركب المغرب الرسمي [144] . فبعد انطلاق الرافعي من مرسى حلق الوادي (وادي مرتيل) على متن سفينة شراعية ، قاصدا مدينة الجزائر ، مرت السفينة بالقرب من جزر ملوية ثم أرست بمرسى رأس الفرك و بعدها بمرسى حبيبة [145] التي قال في وصفها : " **و هي جزيرة بالبحر و إلى البر قريبة** " [146] ، ثم نزل الركب بمرسى رجكون [147] حيث قضى يومين ، و بعد العذول عن مرسى وهران خوف من القراصنة ، نزل الركب بمرسى مدينة مستغانم التي قال في وصفها : " **مصطغانم مدينة قديمة البناء ذات أمن و خير و هناء ، على بعد من البحر بنحو الميلين أو ما يقرب من دون بين** " [148] ، و بعد المرور على رأس الدقوس كان

---

[143] - مصطفى الغاشي : الطرق و ظروف الرحلة الى مكة في الفترة الحديثة ، المغرب الاقصى نموذجا ، ضمن كتاب المغرب و الاندلس دراسات في التاريخ و الاركيولوجيا ، تقديم و تنسيق محمد الشريف ، منشورات كلية الاداب بتطوان ، ط 1 ، مطبعة الخليج العربي ، تطوان ، 2006 ، ص 128 .

[144] - محمد المنوني : من حديث الركب المغربي ، مطبعة الخزن ، تطوان ، 1953 ، ص 41 .

[145] - يقصد جزر حبيباس المقابلة لشاطئ مدينة وهران الجزائرية ، و هي خمس جزر صخرية ، شيدت بها عام 1838 م منارة يربو طولها عن 110 امتار . انظر : عالية بوخاري : جزر حبيباس بوهران ، متعة الاستكشاف في سحر الطبيعة ، جريدة الجمهورية ، وهران ، عدد 4742 بتاريخ 4 شتنبر 2012 ، ص 11 .

[146] - الرحلة ، ص 8 .

[147] - رشقون : جزيرة بركانية تقع على بعد 4 كلم من ساحل بني صاف بولاية تموشنت الجزائرية ، تقدر مساحتها ب 26 هكتار .

[148] - الرحلة ، ص 9 .

النزول بمدينة شرشل التي قال في حقها : " **أما مدينة شرشال فهي حسنة قديمة البناء على شاطئ البحر ، أسواقها مستحسنة ، جوامعها نظيفة و دورها شامخة الحسن منيفة** " [149] ، و بعد ثلاثة أيام رحل الرافعي إلى مدينة الجزائر برا ، فستقبل من قبل أصهره هناك ، و قضى بالمدينة عشرة أيام مكنته من الوقوف على الخصائص المعمارية لهذه المدينة التي لم يخف إعجابه بها ، قائلا : " **للجزائر أسواق بالمتاجر عامرة ، و شوارع متسعة و بالخير غامرة و بالحسن باهرة ، و أفواج من الناس يموجون في أزقتها القاهرة ، قد حازت المفاخر فلا مصر تضاهيها و لا القاهرة ، و منازل لها حفيلة و دور باهية جميلة ، و منازه بها و قصور مموهة الأرجاء مدلية بها الستور ، منوعة البناء شامخة العز و الهناء ، مرهبة لكل عدو كافر قاصمة لكل ملحد فاجر ، سيف الإسلام بها مسلول لأهل الضلال و الكفر بها مفلول ، ذات بساتين و أجنة و أبراج بها عالية تخلخل الصدور و الكنة ، هذا و اختصرت على بعض ما رأيت و لم أعاينه فيما سلف و مضى ، و إن كانت بالجزائر أشياء لا يرام في وصفها انقضاء** " [150] . ثم واصل الرافعي رحلته بحرا فمر بمدينة العنب إلا أنه لم يدخلها لخوفه من شدة هيجان البحر ، لكن تمكن أصحابه من الدخول إليها بالزورق فنقلوا أخبارها إليه ، فقال في وصفها : " **إنها كمدينة شرشال أو ما يقرب إليها في الوصف و المثال** " [151] ، ثم واصلت السفينة طريقها و مرت بالقرب من مدينة تونس الخضراء إلا أنها لم تتمكن من الدخول إلى مرساها بسبب الرياح القوية ، ثم رست السفينة بجزيرة سنزلية [152] الواحشة على حد تعبير الرافعي الذي قال في وصفها : " **الواحشة**

---

149 - الرحلة ، ص 12 .

150 - الرحلة ، ص 17 .

151 - الرحلة ، ص 22 .

152 - سنزلية : يقصد صقلية و هي جزيرة في قطعة من البحر الشامي بينها و بين اقرب بر من مالطة ثمانون ميلا ، و هي جزيرة كبيرة دائرتها سبع مئة ميل ، مثلثة الشكل ، يقابل طرفها مملكة نابولي ، بينهما مجاز ضيق يقال له مسينة ، افتتحها المسلمون في صدر الإسلام في عهد زيادة الله بن ابراهيم الاغلب أمير القيروان ، على يد قائده الفقيه المالكي القاضي أسد بن الفرات ، و ذلك عام 212 هـ ، ثم استرجعها الملك البيز نطي روجير عام 453 هـ . انظر : محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ،

التي غدت مأوى لكل إثم و فاحشة ، مكثنا بساحاتها أياما عديدة كونها جزيرة في البحر عريضة مديدة ، قيل إن طولها سبعه مئة ميل و عرضها كذلك و الأمر واضح لا يحتاج إلى دليل " [153] ، ثم انطلقت السفينة في اتجاه جزيرة رودس ، بعدما مرت بالقرب من جزيرة قندية التي قال في حقها " جزيرة قندية [154] الباهرة ، لكننا حُدنا عن مدينتها القاهرة " [155] ، ثم تراءت لهم جزيرة رودس و مدينتها التي قال في وصفها : " مكثنا مسافرين بجانب الجزيرة يومين ، ثم عاينا المدينة على بعد تسحر العينين ، و هي جزيرة من البر الكبير قريبة ، و مزارعها و بساتينها عجيبة ، فلما تراءت لنا المدينة و المراكب بمرساها مرسية حسبتها حوراء في ذرى المفاخر مجلية " [156] ، و نظرا لطول المدة التي قضاها الرافعي على هذه الجزيرة ، فقد تمكن من تفقد شوارعها و مشاهدة دورها و أسواقها فقال : " لها مبان رائقة و منارة بالجو لاحقة ، و شوارع و أسواق و دور ذات حسن و انتساق ، و بعض الدور له روض يحفه ذات أشجار و رياحين تشمله و من الأزهار ما يكفه " [157] ، كما تمكن من مشاهدة آثار رمي المنجنيق بشوارع المدينة ، و الذي ترك على حاله حتى يبقى شاهدا على فترة فتح الجزيرة من قبل الأتراك العثمانيين الذي حافظوا أيضا على الطراز المعماري الأوربي الذي كان يميز المدينة : " في جل أزقتها كور من الأحجار في غاية الكبر و الافتخار مطروحة بكل الشوارع و الطرق ثابتة حيث ما جاء بها الرمي و حل الطرق ، ذكر لنا أنها من رمي المنجنيق حين أخذت البلاد من أيدي الكفرة

مطبعة لبنان ، بيروت ، ط 2 ، 1984 ، صص 366 - 368 ./ أبو عبيد البكري : المسالك و الممالك ، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1992 ، ج 1 ، صص 482 - 486 . / محمد بن عثمان المكناسي : البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر ، دراسة و تحقيق مليكة الزاهدي ، منشورات كلية الاداب و العلوم الإنسانية بالمحمدية ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 2005 ، ص 248 .

153 - نفسه .

154 - قندية : مدينة تقع بجزيرة إقريطش (كريت) اليونانية ، و تسمى باللغة العربية ربض الخندق ، بناها العرب حوالي 824 م . انظر : الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص 51 .

155 - نفسه .

156 - الرحلة ، ص 23 .

157 - الرحلة ، صص 25 – 26 .

بالتواتر و التحقيق ، كل واحدة موضوعة و ملقاة أين صادف رميها كما صح بالإثبات . و هذه المدينة باقية على ما بنته الروم في القديم ترك على حاله لإتقان بنائه الثابت القويم " [158] .

انطلق الرافعي في وصف مدينة رشيد المصرية بتحديد موقعها الجغرافي قائلا : " **بلاد على شاطئ النيل مبنية و منارة بظافته سنية ، فكم من مباني على شطوط النيل** " [159] ، و لما لفت انتباهه أثناء تجواله بالمدينة ، كثرة الحركة و كثافة النشاط الاقتصادي حيث قال : " **أسواقها بالحسن مبهجة و دكاكينها بالمتاجر منتجة ، و مراكب ببحر النيل لا تحصى و كل بضافة البلاد قدرُصّ ... و مزارع خصبة ورخاء في الأسعار و رزق أثيل ، فلو رأيت أسواقها بالخيرات معمرة و الناس يموجون في أزقتها و الفواكه مثمرة** " [160] . يفسر هذا الرواج التجاري بموقع المدينة الاستراتيجي ، حيث تعد من بين أهم المحطات الرئيسة في طريق الركاب البحرية ، و قد استدعى هذا الازدهار الاقتصادي توفير بنيات الاستقبال لإيواء الوافدين على المدينة من كل حدب و صوب ، لذلك نجد الرافعي يتحدث عن كثرة الفنادق و القهاوي والحمامات و الأسواق بالمدينة قائلا : " **بلاد لها أسواق عديدة و شوارع عريضة مديدة و فناديق في كل محل و مكان لكل من يأوي إليها في كل وقت و أوان ، في غاية الكبر و الحسن و الإتقان متأهبين لكل وارد و لهم بذلك مزايا و إحسان ، و قهاوي أخي رشيد يتضاعف حسنها و يزيد ، و حمامات بالحسن فريدة تسحر كل راء ذات أشكال بديعة** " [161] . و بعد قضاء تسعة أيام بمدينة رشيد استقل الرافعي مركبا عبر النيل صوب مدينة بولاق فلاحظ اتصال العمارة بين مدينة رشيد و القاهرة قائلا : " **قيل إن بين رشيد و مصر من المدن و القرى أزيد من ألف من غير**

---

158 - الرحلة ، ص 26 .
159 - الرحلة ، ص 33 .
160 - نفسه .
161 - نفسه .

افتراء " [162] . و أثناء إقامته بمصر القاهرة زار الرافعي المدينة العتيقة فلاحظ أثر القدم بمبانيها التي أصبحت عبارة عن أطلال خاوية على عروشها ، فقال : " **و هي على نحو الثلاث أميال من مصر القاهرة ، لها أثر مبان كانت هناك فاخرة لم يبق منها مبنى سوى مبان قليلة ، و لا شك أنها كانت مدينة جليلة ، فهي الآن أكثرها خراب و في المسير إليها خوف في الطريق و اضطراب** " [163] .

و في مرحلة الإياب مر الرافعي بمدينة الإسكندرية فوقف على خصائصها المعمارية و مآثرها العمرانية ، حيث لاحظ قدم البناء و انتشار الخراب " **غير أنها مدينة قديمة البناء باق آثار حسنها في كل النواحي وفخرها الأسنا ، جلها خراب لكن الباقي منها ثابت في المبنى** " [164] ، إلا أنه لم يتوانى في التعبير عن إعجابه و استحسانه لهذه المدينة " **فإذا هي مدينة رائقة الحسن والجمال ، كاملة الاوصاف ذات بهجة وكمال** " [165] . و في اعتقاد الرافعي أن خراب مدينة الإسكندرية يفسر بأسباب دينية تتمثل في : " **قيل أن سبب خراب الإسكندرية ، دعاء سيدنا عمرو بن العاصي عند أخذها قال : اللهم اجعلها خراب كبيت الزانية لانقلابها ، وذلك أنها ارتدت ثلاث مرات عن الاسلام بعد أخذها من أيدي الكفرة** " [166] . و استغرب الرافعي من صمود سور المدينة في وجه معاول الزمن " **لكن سورها باق مشيد حصين في غاية المنعة ذو حظ متين** " [167] . و من الأمور التي استرعت انتباه

---

[162] - الرحلة ، ص 34 .
[163] - الرحلة ، ص 57 .
[164] - الرحلة ، ص 154 .
[165] - نفسه .
[166] - الرحلة ، صص 154 - 155 .
[167] - الرحلة ، ص 155 .

الرافعي بالمدينة هو موقعها المطل على البحر و توفرها على مرستين " **لها مرستان ترسي بهما المراكب إحداهن غربية والأخرى بظاهر البلاد شرقية** " [168] .

ب - وصف الدور و الحمامات و المآثر التاريخية :

*** - الحمامات :**

بالنظر إلى طول المدة التي قضاها الرافعي بمدينة الجزائر و التي تصل إلى خمسة عشر يوما ، و نظرا لمعرفته المسبقة بهذه المدينة و مرافقها ، حيث كان كثير التردد عليها لزيارة أصهاره المقيمين بها ، فإنه سرعان ما لاحظ الحمام الجديد الذي شيد بباب عزون ، و الذي لم يكن موجودا أثناء زياراته السابقة ، فكان أن دخله و قدم لنا وصفا دقيقا لعناصره المعمارية و خصائصه الزخرفية ، حيث شاهد بداخله قبة تقوم على أربعة أعمدة ، و سوار من الرخام محاطة بنافورات ينبعث منها الماء الساخن و البارد : " **في داخله قبة قامت على أربع أعمدة ، و سوار ذا هيكل حسن في وصفها الأذهان تحار ، في أسفل كل سارية خصة من الرخام ذات حسن و بهجة و ابتهاج و انتظام ، و السارية وسط الخصة قائمة يخرج من جانبي كل سارية عنبوبين من الماء يصب في الخصة الناعمة ، أحد الأنبوبين سخن و الآخر بارد معدان لغسل الناس من كل قاصد و وار** " [169] . كما شاهد بجانب القبة بيت مستطيل الشكل بداخله خصتان في وسط كل واحدة منهما عمود يصب منه الماء الساخن و البارد ، و للبيت طاقات عديدة مغشاة بالزجاج : " **بجانب القبة بيت طويل داخله خصتان لهما شكل بديع و**

---

[168] - نفسه .

[169] - الرحلة ، ص 16 .

وصف جميل معدات لكل من يأتي ، لكل منها عمود وسطها كالذراع يصب منها الماء السخن و البارد معتدل متواني ، فيه طاقات عديدة مغشاة بالزجاج و الناس يدخلونه أفواجا أفواج " [170] .

*** - وصف الدور و المنازل :**

إلى جنب وصف المساجد و المدينة العتيقة بمصر القاهرة ، اهتم الرافعي بوصف دار السادات البكريين التي تقع وسط المدينة ، فعبر عن إعجابه و استحسانه بها و خصة بروضها الحفيل " **إلى جانبها روض حفيل ماله في الحسن مثيل ، ذات أشجار و أثمار و آس و ورد و خيل و بهار منوعة الفواكه و الأنوار تسحر العيون و الأبصار** " [171] ، و لاحظ في وسط الروض مكان مبني له أبراج و منارة و عليه قبة ، قد هيئ للجلوس خاصة و أنه يشرف على خليج النيل " **في وسط الروض موضع مبنى بأبراج و منارة بديعة حسا و معنى ، هناك موضع هيئ للجلوس و تحفه الأزهار منوعة الأصناف و الجنوس عليه قبة متدانية ، بجانبيه ثلاث صهاريج مديرة بالمجلس متوالية ، و إلى جانب المجلس خليج النيل بزواريق وسطه** " [172] ، و قد قدّر طول هذا الروض بنحو الميل ، و ذكر أنه يسقى بواسطة النواعير التي تجلب إليه الماء من نهر النيل " **عدد النواعر التي بها يسقى خمس عشرة ناعورة تجلب الماء إلى أرضه فيسقى كل ذلك من بحر النيل** " [173] .

*** - وصف المآثر التاريخية :**

---

[170] - الرحلة ، صص 16 – 17 .
[171] - الرحلة ، ص 60 .
[172] - نفسه .
[173] - نفسه .

استوقفت الرافعي بمدينة الإسكندرية مجموعة من المآثر التاريخية فعمل على وصفها ، و حاول تحديد تاريخ تشييدها ، و أولى تلك المآثر و أبرزها ، عمود الصواري [174] الذي يقع وسط ميدان الإسكندرية بفناء معبد سيرابيس ، حيث رفع قياسات قاعدته قائلا : " **وصف الحجر الذي عليه العامود عشرين شبرا من كل جهة** " [175] ، ثم يشرع في وصف العمود قائلا : " **والعامود من رخام أبيض مدير كخراط صنعة في غاية العلو والاتساع ، يبرق من صفائه فما أرفعه ، أعلى من كل صومعة طوله وأوسع من دورانها ، فاعتبر كيف كان وصوله ! قيل أنهم كانوا أربع أعمدة وقوف ، عليهم قبة مبناة كان لها خطر وشفوق ، صنعت لابنة الإسكندر والعلم لله في سر ذلك والأمر عنده موقوف** " [176] ، و بنفس الموضع شاهد الرافعي عمود آخر أوصافه : " **شاهدنا أيضا من الجهة الأخرى عمود من رخام مربع مشحوذ طرفه الأعلى سره لا يدرى ، اتساعه من كل جهة عشرة أشبار ، فيه منقوش تماثيل وصفة أشجار وهو عال في غاية العلو والاتساع ، أمره بالإسكندرية مشاع يسمى مسلة فرعون ، والله أعلم لما ركب والناس وفود إليه يسعون** " [177] . و شاهد أيضا الناضولي و هو عبارة عن " **بنيان مرتفع خارج الباب الأخضر كالصومعة المتوسطة ، مربع البناء في موضع عال أشهر ، له خمسة عشر شبرا من كل الجهات ، بابه مرتفع عن الأرض بستة أشبار مريحات** " [178] .

---

[174] - و يعرف أيضا بعمود بومبي يبلغ ارتفاعه 84 قدما و سمكه حوالي سبعة أقدام ، و هو منحوت من الكرانيت الأحمر المجلوب من أسوان ، قاعدته جميلة و هي مبنية من أحجار جلبت من مبان أقدم ، يوجد في واجهته الشرقية حجر من الكرانيت الأخضر عليه نقش يوناني " على شرف أرسينوى " أخت زوجة بطليموس فيلادلفوس ، و على الواجهة المقابلة توجد بشكل معكوس داخل تجويف صورة سيتي الأول (1350 ق م) و اسمة بالهيروغليفية . و هو يوحي بعصر الاستيطان العظيم على تل راقودة . من المحتمل أن يكون قد أقيم هذا العمود للإمبراطور دقلديانوس حوالي عام 297 م . أنظر : أ . م فورستر : الإسكندرية ، تاريخ و دليل ، تقديم لورنس داريل ، ترجمة حسن بيومي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1999 ، صص 198 – 200 .

[175] - الرحلة ، ص 157 .

[176] - نفسه .

[177] - نفسه .

[178] - نفسه .

خلاصة :

شكل وصف العمارة و إبراز عناصرها المعمارية و خصائصها الفنية الزخرفية الموضوع الرئيس في رحلة **" المعارج المرقية في الرحلة المشرقية "** ، فاهتمام الرافعي التطواني بوصف المآثر الدينية و الدفاعية و المدنية في المناطق التي زارها أو تلك التي شكلت مسار رحلته ، يكشف لنا مدى علم الرجل و خبرته بفن العمارة و التشييد ، و يبدو ذلك جليا في مباشرته الميدانية لرفع القياسات و حساب المسافات و تحديد الأشكال الهندسية و مواد البناء و الزخرفة بدقة متناهية ، كما يعكس لنا رفعة ذوقه و تقديره لقيم الجمال و تثمينه ، و قد كان تركيز الرافعي منصب بالأساس على العمارة الدينية من جوامع و مساجد و مشاهد مقدسة بمكة و المدينة المنورة ، و هو ما يعكس لنا مستوى تدينه و درجة تصوفه التي يمكن استجلاؤها من خلال احترامه لتلك المشاهد المباركة إلى درجة التقديس .

إن موضوع وصف العمارة ، من المواضيع التي تكاد تتكرر في جل الرحلات المغربية حجازية كانت أو سفارية ، لكن القليل من هذه النصوص الرِّحْلِيّة التي تقدم معطيات تقنية دقيقة عن المآثر العمرانية موضوع الوصف ، و لعل ذلك راجع إلى طبيعة تكوين الرحالة المغربة الذي يغلب عليه الطابع الفقهي و الثقافة الصوفية ، من هنا تتميز رحلة الرافعي بين أقرانه بميزة فريدة ، تتمثل في حضور الجانب التقني الدقيق في أوصاف الرحلة من جهة ، و في رصد التغييرات و التجديدات التي عرفتها بعض المدن على مستوى العمارة من جهة ثانية . كما أن اهتمام الرحالة بالعمارة الدفاعية ، و تقديمه لمعطيات هامة تتعلق بالعدة و السلاح و خاصة الترسانة العسكرية البحرية ، يجد تفسيره في سياق المرحلة التاريخية التي عايشها و ما ميزها من تعبئة رسمية و شعبية من أجل تحرير الثغور المحتلة ،

خصة مدينة سبتة القريبة من مدينة تطوان مسقط رأس الرافعي ، الذي تحسر كثيرا بعدم شاهد عديدا من السفن الحربية المزودة بمدافع قوية راسية بمرسى جزيرة رودس ، إلا أنها تفتقد إلى الأبطال الأشاوس لقيدتها و طرد عمارة الكفار التي كانت تحاصر المرسى ، و كأني به يقول : " لو أوتي السلطان إسماعيل مثل ما أوتي الأتراك من سفن حربية لتمكن من تحرير مدينة سبتة المغربية " .